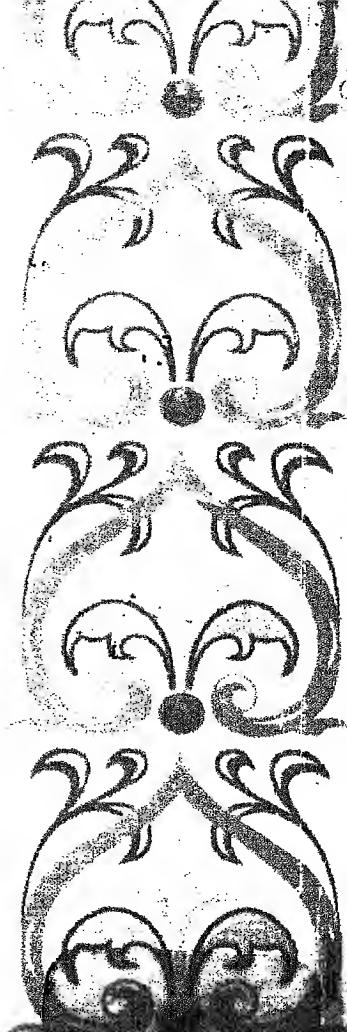




قطاع الثقافة

# فقهاء المدينة السبعة



يقدمه / أ. د. محمد إبراهيم الجبرشي

0184992



Elhikmah Alexandria





# فقهاء المدينة السبعة

بقلم / أ.د. محمد إبراهيم الجيوشي

---



مطبوعات



قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

---

**إبراهيم سعدة**

## المفهرس

الصفحة	
٧	١ - المقدمة
٩	٢ - تمهيد
٩	(أ) مصدر الأحكام في عصر النبوة
١٦	(ب) نشأة المدارس الفكرية بعد عصر النبوة
١٩	٢ - مدخل :
١٩	(أ) فقهاء المدينة
٢١	(ب) مجمع العلماء أو مجلس القترى
٢٢	(ج) حلقات الدرس
٦٨ - ٢٥	٤ - سيد التابعين سعيد بن المسيب
١٠٠ - ٦٩	٥ - عالم المدينة عروة بن الزبير
١٠٨ - ١٠١	٦ - راهب قريش أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث
١٣٢ - ١٠٩	٧ - عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود
١٤٢ - ١٣٣	٨ - القاسم بن محمد
١٥٤ - ١٤٣	٩ - خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري
١٥٩ - ١٥٥	١٠ - سليمان بن يسار
١٦٠	١١ - قائمة المراجع

- ١- سعيد بن المسيب.
- ٢- عروة بن الزبير.
- ٣- عبيد الله بن عبد الله بن عتبة.
- ٤- أبو بكر بن عبد الرحمن.
- ٥- القاسم بن محمد.
- ٦- خارجة بن زيد.
- ٧- سليمان بن يسار.





## مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد،  
وعلى آله وأصحابه ومن سلك طريقه إلى يوم الدين .  
وبعد :

فتحاول هذه الصفحات أن تعرض صورة للنشاط الفكرى  
الذى بدأ فى المسجد النبوى بالمدينة المنورة أخذاً من  
التوجيهات النبوية التى كان يتلقاها الصحابة رضوان الله عليهم  
عن رسول الله ﷺ.

وبروز عدد من الأصحاب فى مجال الفتوى والتوجيه على  
ضوء ما تلقوه من معارف فى مجالس رسول الله ﷺ، أو من  
إجاباته على بعض الأسئلة والاستفسارات التى كان يتوجه بها  
الداخلون الجدد فى الإسلام.

وتلقى عن هؤلاء الأصحاب عدد من التلاميذ عكفوا على  
الإمام - قدر المستطاع - على استيعاب ما روى عن النبى ﷺ  
وخلفائه من قضايا وأحكام، وعرف هذا الجيل الذى أخذ عن  
الأصحاب بجيل التابعين، وكان فى طليعتهم هؤلاء الذين حملوا  
اللواء فى المدينة المنورة، حيث كان يقد إليها طلاب العلم من  
شتى البقاع، وكان من أبرزهم سبعة من الفقهاء . وتعرض هذه  
الدراسة تراجم مفصلة لكل واحد من هؤلاء الذين اصطاح على  
تسميتهم بفقهاء المدينة السبعة، قد يكون فى عرض سيرتهم  
ومنهجهم فائدة لشبابنا وطلاب العلم فى أيامنا هذه. والله الهادى  
إلى سواء السبيل.

أ.د. محمد إبراهيم الجيوشى

رجب الفرد سنة ١٤١٩ هـ

القاهرة فى  
نوفمبر سنة ١٩٩٨ م



## تمهيد

كان الصحابة - رضوان الله عليهم - إذا أرادوا أن يعرفوا حكماً من الأحكام، أو أمراً من أمور العقيدة والعبادات، أو السلوك والأخلاق والتعاملات اتجهوا إلى النبي ﷺ يسألونه عن الطريقة الصحيحة التي يتعاملون بها أو يعلمون بها غيرهم من أولادهم ومخالطيهم.

وكانوا يتلقون عنه - صلوات الله وسلامه عليه - ما يريد أن يوجههم إليه في أمور الدين والدنيا.

وقد حفظت لنا كتب السنن والسير فيضا من هذه الأسئلة أو التوجيهات التي كانوا يتلقونها عن النبي ﷺ ابتداءً، أو إجابة عن بعض تساؤلاتهم حول ما يعرض لهم من أمور الدنيا والدين. وقد شكل ذلك معيناً لا ينضب من المعارف التي استقامها الصحابة منه عليه السلام، وانتفعوا بها حتى حصل عدد منهم من العلم الذي تلقاه عن رسول الله ﷺ ما هياً له أن يصل إلى درجة تؤهله لأن يجلس مجلس الفتوى في حياة النبي ﷺ، وبخاصة هؤلاء الذين بعث بهم - صلوات الله وسلامه عليه - إلى أماكن خارج مكة لما كان بمكة، أو خارج المدينة بعد أن هاجر إليها.

وممن يمثلون الفترة الأولى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، حيث هاجر مع عدد من المسلمين إلى الحبشة بعد أن اشتد عليهم إيذاء قريش، وإيذان النبي لهم أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من اضطهاد أهل مكة قاتلاً لهم : « إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد » .

ومصعب بن عمير، الذي أرسله النبي ﷺ إلى يثرب «المدينة» بعد بيعة العقبة، حيث قام بدور الدعوة إلى الإسلام، وتعليم أهل المدينة القرآن وتلقيهم في الدين مما كان له أبعاد الأثر في إسلام أهل المدينة فيما بعد.

وممن يمثل الدور الثاني. وهم الذين بعث بهم رسول الله ﷺ إلى أماكن مختلفة ليقوموا بنشر الدعوة بعد هجرته إلى المدينة - معاذ بن جبل، الذي توجه إلى اليمن، مزودا بتوجيهات ونصائح نبوية تعينه على القيام بمهامه على خير وجه، ومنها : « يا معاذ إنك تقدم على قوم يتعبدون في الصوامع، ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، فإن هم استجابوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، وصدقة تؤخذ من أغنيائهم، فتردّ على فقرائهم ».

ومن تلك التوجيهات الوصية الجامعة التي بنى عليها العلماء رأيهم في اعتبار القياس والاجتهاد من أصول التشريع في الإسلام، وذلك حيث قال ﷺ : «يا معاذ، بماذا تحكم إذا عرض لك أمر؟

قال : أعرضه على كتاب الله، فإن وجدته أخذت به.

قال الرسول ﷺ : فإن لم تجد في كتاب الله ؟

قال : أعرضه على سنة رسول الله.

قال ﷺ : فإن لم تجد في السنة ؟

قال : اجتهد رأيي.

فسرّ النبي ﷺ من إجابة معاذ، وعقب قائلا: « الحمد لله الذي

وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله<sup>(١)</sup> .  
وقد اختار النبي ﷺ معاذاً لهذه المهمة لما كان يأنسه فيه  
من حرص على الاستفادة من علم رسول الله ﷺ جهد الطاقة،  
حتى إنه قال بشأنه : « أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل »  
إلى جانب ما كان يتميز به من تضحية وتفان.

وكان الإمام على - رضى الله عنه - ممن بلغوا درجة الفتوى  
فى عهد رسول الله ﷺ، واشتهر بالقضاء بين المسلمين، حتى  
روى عن بعض الصحابة أنه كان يقول : « كنا نتحدث أن من  
أقضى أهل المدينة على بن أبى طالب ».

وذلك لأن النبي ﷺ قد دعا له بالفهم والتفهم وقد وهب ذلك  
التوفيق فى القضاء، لأنه كان ملازماً لرسول الله ﷺ، ونشأ فى  
بيته، وعلى مقربة منه، وهو فتى صغير، ثم لازمه أيضاً بعد أن  
صار رجلاً، وتزوج بابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وقد  
هيا له كل ذلك فرصة نادرة لم تنتهياً لأحد سواه.

وقد تحدث على - كرم الله وجهه - عن هذه الظروف التى  
أتاحت له القرب من رسول الله ﷺ، والاستفادة من علمه، بعد أن  
نال بركة دعائه، وفى ذلك يقول - رضى الله عنه - : إنه كان إذا  
سأله أجاب، وإذا سكت بدأه بالحديث.

وقد استرعت هذه الظاهرة أنظار بعض معاصريه، فسألوه  
عن سببها قائلين : « مالك أكثر أصحاب رسول الله ﷺ حديثاً  
عنه؟

فقال : كنت إذا سألته أجابنى، وإذا سكت ابتدأنى.  
وقد هيات له هذه الملازمة المباركة معرفة كاملة بأحوال

(١) راجع إعلام الموقعين لابن القيم ج ١ الطبعة المنيرية.

القرآن الكريم، وأسباب نزوله، وأين نزل؟  
 وكان على - رضى الله عنه - إلى جانب ما سبق ذا فطنة  
 وفهم، وصاحب منطق سديد، ولسان معبر، حتى قال عن  
 نفسه : « والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت،  
 وعلى من نزلت، إن ربي وهبني قلبا عقولا ولسانا ناطقا. »  
 وكان يستحث الناس أن يسألوه عن القرآن حتى يستفيدوا  
 من علمه فينتفعون وينفعون غيرهم، وفي ذلك يقول : « سلوني  
 عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت  
 أم بنهار، وفي سهل أم في جبل » (١).

ولذلك كان علمه بحرا يغترف منه الكثيرون؛ ولأجل هذه  
 المكانة المشهورة، والصلة الموثوقة بالنبوة، والعلم الذي انتفع  
 به الآخرون، كان الكثيرون يتجهون إليه بما يشغلهم من أمور  
 الدين، يستطلعون رأيه، ويسألونه عن يأخذون أمور دينهم من  
 أصحاب رسول الله ﷺ، ومن ذلك ما روى عن أبي البحتري أنه  
 قال : أتينا عليا فسألناه عن أصحاب محمد ﷺ .

فقال : عن أيهم ؟

قلنا : حدثنا عن ابن مسعود.

قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى وكفى بذلك علما.

قلنا : حدثنا عن أبي موسى الأشعري.

قال : صبغ في العلم صبغة ثم خرج منها.

قلنا : حدثنا عن عمار بن ياسر.

قال : مؤمن نسي، وإذا ذكر ذكر، خلط الإيمان بلحمه ودمه

ليس للخار فيه نصيب.

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٢٢٨ طبع بيروت .

قلنا : حدثنا عن حذيفة.

قال : أعلم أصحاب محمد ﷺ بالمنافقين.

قلنا : حدثنا عن أبي ذر.

قال : وعى علما ثم عجز عنه.

قلنا : أخبرنا عن سلمان.

قال : أدرك العلم الأول والآخر، بحر لا يتزعزعه، منا أهل

البيت.

قلنا : فأخبرنا عن نفسك يا أمير المؤمنين.

قال : إياها أردتم ، كنت إذا سألت أعطيت وإذا سكت

ابتدئت<sup>(١)</sup>.

ولم يكن هؤلاء فقط هم الذين بلغوا درجة الفتوى في عهد رسول الله ﷺ، بل كان منهم أبو بكر وعمر وعثمان وآخرون.

ولكن على الرغم من أن عمر - رضى الله عنه - كان في الذروة من علماء الصحابة إلا أنه كان إذا عرض له أمر من الأمور يجب أن يتثبت فيه، بالتعرف إلى رأى الصحابة الآخرين، وبخاصة رأى رجل مثل على كرم الله وجهه، الذى كان عمر يعرف له علمه وقدرته الفائقة على الفصل فى القضاء، وتوفيقه فيه، فكان يقول إذا حضرت بعض القضايا المعضلة التى تحتاج إلى نظر ثاقب : « قضية ولا أبا حسن لها».

ومما يروى مما يشير إلى رغبة عمر فى التثبت أنه خرج يوماً على الصحابة قائلاً : أفتونى فى شىء صنعتة اليوم.

فقالوا : وما هو يا أمير المؤمنين ؟

قال : مرت بى جارية لى فأعجبتنى، فوقعت عليها. وأنا

صائم.

(١) راجع الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٣٦ ، وإعلام الموقعين جـ ١ ص ١٢ الطبعة المنيرية.

ويبدو أن عمر كان صائما صوم تطوع، وإلا فليس عمر ممن يخفى عليه حكم ذلك بالنسبة لصيام رمضان، وكأنهم رأوا أن ما فعله عمر أمراً خطيراً. وعبروا عن وجهة نظرهم مما بدا في تعليقاتهم على تساؤل عمر رضى الله عنه، وخاضوا في هذا الأمر وأكثروا فيه، وكان على رضى الله عنه بين الجالسين، إلا أن عمر رضى الله عنه لاحظ أن علياً لم يدل برأيه، ولم يشارك القوم فيما ذهبوا إليه، بل ظل ساكناً وهم يتكلمون، فتوجه إليه بالسؤال قائلاً : ما تقول يا ابن أبى طالب ؟

فأجاب على : جئت حلالاً، ويوماً مكان يوم.  
وهذا يعنى أن ما أقدمت عليه أمر حلال، ويمكنك أن تتطوع بصيام يوم مكان هذا اليوم إن أردت.

وكانما أزاحت فتوى على كايوساً ثقيلاً عن كاهل عمر الذى كان يشعر بإحساس المسلم أن ما أقدم عليه ليس حراماً، ولكنه كان يحب أن يتثبت لنفسه، ويطمئن على مسلكه من باب الورع والحيطة، فقال لعليّ تعقياً على فتواه : « أنت خيرهم فتوى »<sup>(١)</sup>.  
وهذا الموقف يدلنا على الحيطة الشديدة التى كان يتميز بها عمر فى أمور الدين، وعلى فقه على وفهمه الصحيح لروح الإسلام ومنهجه، ويذكرنا بموقف قريب الشبه من هذا الموقف لعمر فى حياة النبى ﷺ حين قبل امرأته فى شهر رمضان، وأقبل إلى الرسول ﷺ منزعجاً يخشى أن يكون قد ارتكب حراماً أو وقع فى الإثم، ويعبر عن هذه الخشية، وذلك الهمع الطريقة التى ألقى بها عمر الأمر إلى النبى ﷺ، حيث قال : هلكت يا رسول الله.

قال : « وما أهلكك ؟ »

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢٢٩.



قال : قبلت امرأتى وأنا صائم.

ويهون النبي ﷺ الأمر على عمر بأن ضرب له مثلا بشيء ملموس محسوس يأتيه الناس كل يوم، ولا يشعرون بحرج حين يفتلونه، فيقول له : « يا عمر أرأيت لو تمضمضت، أيفسد صومك ؟ »

قال عمر : لا.

وينهى إليه النبي ﷺ الحكم فى بساطة قائلا : « إن هذه مثل تلك ».

هكذا كان أمر الفقه والفتوى يأخذان مسارهما أيام النبي ﷺ ولم يتغير الأمر كثيرا أيام الراشدين رضى الله عنهم، غير أن النبي ﷺ لما لحق بالرفيق الأعلى نهض أصحابه يبلغون الناس ما تلقوه عنه، ويجيبون عن تساؤلاتهم فى كل الأمور بما وعوا من هدى النبي ﷺ، ووقفوا عليه من توجيهاته فى أمور الدين والدنيا. سواء كان ما يسأل عنه يتعلق بأمر العقيدة أو العبادة أو السلوك والأخلاق والمعاملات العامة.

فماذا كان بعد عهد النبوة ؟ وما الدور الذى قام به الصحابة

فى نقل ما تلقوه عن رسول الله ﷺ إلى من جاء بعدهم ؟

هذا ما ستجيب عنه الصفحات التالية إن شاء الله.

## نشأة المدارس الفكرية بعد عصر النبوة

لم يكد عصر النبوة ينتهى ويبدأ عصر الخلفاء الراشدين حتى أخذ الإسلام ينتشر خارج الجزيرة العربية فى العراق والشام وفارس ومصر وسواها، وأقبل أهل البلاد على الإسلام ويعتقونه، ويتخذونه منهج حياة وانتشر الصحابة تبعاً لذلك فى البلاد التى دخلها الإسلام يرشدون الناس، ويعلمونهم، ويؤدون إليهم ما تلقوه من رسول الله ﷺ. وكان كل صحابى فى موقعه بمثابة المرجع الذى يتجه إليه الناس كلما أرادوا أن يتعرفوا على توجيه الإسلام فيما يعرض لهم من قضايا ومشكلات فكان عبدالله بن مسعود فى العراق، وعبد الله بن عباس فى مكة، وزيد ابن ثابت وأبى بن كعب وسواهما فى المدينة وعبادة بن الصامت والمقداد بن عمرو وأبو الدرداء فى الشام، ومعاذ بن جبل فى اليمن، وعمرو بن العاص ومن معه من الصحابة فى مصر، وهكذا توزع الصحابة رضوان الله عليهم فى شتى الأقطار، وأخذ عن كل منهم عدد من التابعين الذين حملوا علمه وتلقوا على يديه ما يرويه عن رسول الله ﷺ، وكان ذلك النواة الأولى التى ترتب عليها نشأة عدد من المدارس الفكرية، والمذاهب الفقهية فى عدد من المدن والعواصم الإسلامية.

ففى العراق نشأت مدرسة تأخذ عن عبدالله بن مسعود وتتابع خطاه فى الفكر، وتترسم طريقه فى الفهم والاستنباط، وعن عبدالله بن مسعود أخذ كثير من العلماء المعروفين، ومنهم شريح بن الحارث الكندى القاضى، وعلاّمة التابعين عامر بن شراحبيل الشُعْبى، وسواهما، ولم يكن ابن مسعود فقط هو الذى أخذ عنه أهل العراق، وإنما كان هناك آخرون سواه، ولكنه كان أشهرهم، وحسبه شرفاً، وإعلاءً لمكانته أن رسول الله ﷺ قال

فى شأنه : « عليم معلم ، وجعله أحد أربعة يؤخذ عنهم القرآن ، فقال : خذ القرآن عن أربعة : عن ابن أم عبد « عبدالله بن مسعود » ، وعن أبى بن كعب ، وعن سالم مولى أبى حذيفة ، وعن معاذ بن جبل . »

وقد قال عنه عقبه بن عمرو : « وما أرى أحدا أعلم بما أنزل على محمد ﷺ من عبد الله ، فقال أبو موسى : إن تقل ذلك ، فإنه كان يسمع ولا نسمع ، ويدخل ولا ندخل ، وقال عبد الله بن مسعود عن نفسه : « ما نزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما نزلت ، ولو أنى أعلم أن رجلا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لآتيته »<sup>(١)</sup> .

وقد قدم الإمام على رضى الله عنه الكوفة ، وأخذ عنه أهلها ، ونزل بها كذلك أبو موسى الأشعري ، وقد تبلورت هذه المدرسة حتى انتهت إلى مذهب أبى حنيفة ، الذى يقول عنه العلماء : مذهب « أهل الرأى » .

أما مدرسة مكة فكانت تقوم على فكر ابن عباس ومن استقر معه من الصحابة ، إلا أن ابن عباس كان هو المؤثر على اتجاه علماء مكة ، لأن ابن عباس حينما يتكلم عن علم الإسلام ينصت إليه الناس جميعا ، صحابة كانوا أو تابعين ، وكيف لا ينصتون إليه ، وقد قال النبى ﷺ فى شأنه : « اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب ، وفقهه فى الدين » وسماه محمد بن الحنفية ربانى هذه الأمة ، وعن ابن عباس أخذ علماء مكة ، ومن أشهرهم عطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس .

وقد أدesh ابن عباس العلماء والفقهاء بسعة علمه ، وقدرته على ترجمة المعانى التى تعبر عن حقيقة الإسلام فى كل

(١) راجع إعلام الموقعين ج ١ ص ١٢ .

مياينته، حتى رأينا عبيد الله بن عبدالله بن عتبة يقول : « مارأيت أحدا أعلم بالسنة ولا أجلد رأيا، ولا أثقب نظرا حين ينظر من ابن عباس».

وقال عطاء بن أبي رباح : « ما رأيت مجلسا قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقها وأعظم، إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم في واد واسع » .

وكان عمر رضى الله عنه يسأله مع الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ .

وكان زيد بن ثابت وأبى بن كعب بالمدينة إلى جانب الخلفاء والصحابة ينشرون علم رسول الله على أهل المدينة والقادمين إليها يريدون التزود من المعرفة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة. فحسبنا أن نعلم أن زيدا كان أشهر كتاب الوحي، وهو الذى وكل إليه أبو بكر رضى الله عنه كتابة القرآن فى مصحف واحد بعد أن استحر القتل بالقراء فى معركة اليمامة، وكان أيضا على رأس اللجنة التى أعدها عثمان رضى الله عنه لكتابة القرآن فى خلافته وكان مبرزاً فى علم الميراث، وقد أثر عن النبى ﷺ فى شأنه قوله « أفرضكم زيد ».

## مدخل فقهاء المدينة

جد الصحابة في نشر علم رسول الله ﷺ وتبليغه للناس استشعاراً منهم بواجبهم نحو تبليغ الدعوة للناس جميعاً، واستجابة لقول النبي ﷺ : « نَصَرَ اللهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتى فَوْعَاها فَبَلَغَهَا قَرِيبَ مَبْلَغِ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » وتلقى الجيل الذي يلي الصحابة عنهم علم رسول الله صلوات الله عليه وعرف هذا الجيل في تاريخ الفكر الإسلامى باسم التابعين ، وكانت المساجد في الأمصار المختلفة ميداناً لحلقات الدروس التي يتلقاها التابعون عن الصحابة اقتداءً بما كان عليه رسول الله ﷺ في مسجد المدينة وعرفت الأمصار المختلفة أعلاماً من علماء التابعين حملوا العلم وقاموا بنشره وتعليم من يليهم ممن سمو بتابعي التابعين .

وقد ترك هؤلاء التابعون بصماتهم على مجالات المعرفة المختلفة؛ وكان من جيل التابعين في المدينة جماعة عرفوا بفقهاء المدينة السبعة أو العشرة كانوا قد انتهى إليهم علم الصحابة، وأخذ الناس يتوجهون إليهم طالبين الفتوى، ويصدرون عن رأيهم فيما يعرض لهم من أمور الدنيا والدين وهؤلاء الفقهاء هم :

- ١ - سيد التابعين سعيد بن المسيب
- ٢ - عالم قريش عروة بن الزبير
- ٣ - راهب قريش أبو بكر بن عبد الرحمن
- ٤ - القاسم بن محمد بن أبي بكر رضى الله عنه
- ٥ - عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود
- ٦ - خارجة بن زيد بن ثابت ، أبوه زيد كاتب الوحي رضى

الله عنه

- ٧ - سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه  
 ٨ - سليمان بن يسار  
 ٩ - أبو سلمة بن عبدالرحمن  
 ١٠ - قبيصة بن ذؤيب  
 ١١ - وأحياناً يضيفون إليهم أبان بن عثمان بن عفان رضى  
 الله عنه

وقد أخذ هؤلاء علمهم عن علماء الصحابة ومفتيهم من أمثال:  
 زيد بن ثابت، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، وكان  
 كثيرون غيرهم من الصحابة يأخذ الناس عنهم، ويفتونهم فى  
 أمور دينهم إلا أنهم لم يكن لهم أصحاب يمثلون جيلاً من  
 التلاميذ يحملون عنهم إلى من يأتى بعدهم من الأجيال القادمة.  
 ومما روى حول هذا المعنى قول على بن عبدالله : « لم يكن  
 من أصحاب النبي ﷺ أحد له أصحاب حفظوا عنه، وقاموا بقوله  
 فى الفقه إلا ثلاثة : زيد، وعبدالله، وابن عباس، فأعلم الناس بزيد  
 ابن ثابت وقوله العشرة : سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن  
 عبدالرحمن، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وعروة بن  
 الزبير، وأبو بكر بن عبدالرحمن، وخارجة بن زيد، وسليمان بن  
 يسار، وأبان بن عثمان وقبيصة بن ذؤيب، وذكر آخر، وكان  
 أعلم الناس بقولهم وحديثهم ابن شهاب، ثم بعده مالك بن أنس،  
 ثم بعد مالك عبدالرحمن بن مهدي»<sup>(١)</sup>.

وكون هؤلاء الفقهاء هم الذين يصدر الناس عن آرائهم فيما  
 يعرض لهم من قضايا الحلال والحرام قد تأكد من مسلك الناس  
 الذين عاصروهم، فقد حدث أن خطب فتى ابنة عم له فدب

(١) راجع المعرفة والتاريخ تحقيق الدكتور ضياء العمري جـ ١ ص ٢٥٢، وراجع أيضاً  
 تاريخ بغداد جـ ١٠ ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

خلاف بين الأسرتين، فقال الفتى هي طالق إن نكحتها حتى أكل الغضيض - والغضيض طلع ذكر النخل - ثم ندم على ما كان منه، وأخذوا يبحثون عن مخرج مما وقعوا فيه، يروى أحداث هذه الواقعة وما تبعها من استطلاع آراء الفقهاء رجل يسمى المنذر على بن أبي الحكم قال : إن ابن أخيه خطب ابنة عم له، فتشاجروا في بعض الأمر، فقال الفتى : هي طالق إن نكحتها حتى أكل الغضيض، ثم ندموا على ما كان منهم، فقال المنذر : أنا آتيكم من ذلك بالبيان، قال : فانطلقت إلى سعيد بن المسيب، فقلت له « إن رجلا من أهلي خطب ابنة عم له، فشجر بينهم بعض الأمر، فقال هي طالق إن نكحتها حتى أكل الغضيض.

قال ابن المسيب : ليس عليه شيء ، طلق ما لا يملك قال المنذر : ثم سألت عروة بن الزبير عن ذلك، فقال : ليس عليه شيء طلق ما لا يملك.

قال المنذر : ثم سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن، فقال ليس عليه شيء بما لا يملك.

قال المنذر : ثم سألت عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن ذلك. فقال : ليس عليه شيء طلق ما لا يملك يقول المنذر : ثم سألت عمر بن عبدالعزيز قال : هل سألت أحدا ؟ قلت : نعم وسميتهم ثم رجعت إلى القوم فأخبرتهم بما سألت عنه<sup>(١)</sup>.

### مجمع العلماء أو مجلس الفتوى :

قد حفلت كتب التاريخ والأخبار بما رواه العلماء عن هذه الفترة، واجتمعت كلمتهم على أن هؤلاء هم الذين كانوا تنتهى إليهم القضايا ليحكموا فيها، وكانوا يصدرن عن رأى جماعى

(١) راجع المعرفة والتاريخ ج ١ ص ٢٥٢.

فإذا عرضت قضية من القضايا اجتمعوا، وأخذوا يستعرضونها من جوانبها المختلفة ثم يصدرون رأيا واحدا حولها وقد روى عن عبدالله بن المبارك قال : كان فقهاء أهل المدينة الذين كانوا يصدرون عن رأيهم سبعة : سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار وسالم بن عبدالله والقاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد بن ثابت، قال : وكانوا إذا جاءتهم المسألة دخلوا جميعا فنظروا فيها، ولا يقضى القاضى حتى ترفع إليهم فينظرون فيها فيصدرون،<sup>(١)</sup> .

وكان احترام هؤلاء العلماء بعضهم لبعض احتراما شديدا، ويعرف كل منهم لأخيه مكانته، لا يغمطه ولا يحسده ولا ينفس عليه، ذلك أنهم كانوا جميعا يسعون جاهدين للوصول إلى الحق جهد المستطاع. ويجتهدون في أن يصيبوا حكم الله، ويقتفون خطى نبيه ﷺ فيما يصدرون من أحكام، ولم يكونوا أصحاب وظائف يقومون بها للحكام وإنما كانوا يفعلون ذلك انطلاقا من إحساسهم بمسئولياتهم نحو أفراد المجتمع، وكان تداولهم في القضايا بمنزلة أعمال المستشارين الذين يدرسون الأمور ويصدرون توصياتهم بمنطق عصرنا إلا أن المستشارين المعاصرين ليس لتوصياتهم صفة الإلزام، أما ما كان يعلنه فقهاء المدينة من رأى فهو ملزم لا يسع قاضيا ولا حاكما أن يخرج عليه أو يحكم بما سواه.

### حلقات الدرس :

كان المسجد النبوى فى المدينة المنورة مقصد الراغبين فى العلم، والساعين إلى التزود منه، والباحثين عن المعرفة، كل هؤلاء يجدون فى ساحته ظلتهم، فى حلقات الدرس، ومجالس

(١) راجع المعرفة والتاريخ جـ ٢ ص ٤٧١.



الشيوخ، يجلسون إليهم يتلقون عنهم ويأخذون من معارفهم، إما عن طريق التلقى، أو عن طريق الإجابة عن أسئلة يتقدم بها طلاب العلم إلى الشيوخ فيجيبونهم إن كان الشيخ يأنس من نفسه المقدره على إجابة السائل، فإن لم يكن عنده ما يجيب به السائل فإنه لا يجد غضاضة في الإعلان عن عدم معرفته بهذا النوع من العلم الذي يريد السائل أن يتعرف عليه. ثم يشير عليه بأن يتحول إلى من يعتقد أنه أهل للإجابة عما سئل عنه.

ولم تكن حلقات الدرس مقصورة على لون معين من ألوان المعرفة، بل كان هناك ألوان شتى من المعارف، مثل الأخيار والأنساب، والحديث وعلومه، والتفسير وعلومه، والفقه والفتيا والقضاء، ينتقل الطالب بين هذه الحلقات يأخذ عن هذا وذاك ما يفيد، ويعينه على تكوينه العلمي مثله مثل النحلة في البستان المزهري، تنتقل من زهرة إلى زهرة، فتختار أعذب الجنى وأطيب الريح.

وكانت قد بدأت مجالس العلم هذه أول ما بدأت على يدي النبي ﷺ، وكان الصحابة جميعا طلاب هذه المجالس، التي كانت تشرق بنور الوحي، وتفوح بعطر النبوة، ثم لم يلبث رسول الله ﷺ أن لحق بالرفيق الأعلى، فجرى الصحابة على منهجه، ونسجوا على منواله، وتعددت المجالس، وأقبل الناس على أصحاب رسول الله ﷺ، يأخذون عنهم القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ، ويتتبعون أحكامه وقضاياه، ويبحثون عن هديه وتعاليمه في أمور الدين والدنيا، وتوجيهاته في العبادات والمعاملات والسلوك والأخلاق، ونظم السياسة وأصول الحكم.

وأقبل الناس على الذين اشتهروا من الصحابة بالعلم والفتيا، وأخذوا عنهم حتى كان لهم تلامذة وأتباع يبلغون عنهم، ونشأ عن ذلك جيل جديد من أبناء المهاجرين والأنصار، يجدون في

تحصيل العلم ونشره على الناس إلى أن انتهت الفتيا إلى مجموعة منهم كما أشرنا إليهم من قبل، وقد أشار إلى هذه الحركة العلمية أنه طلاب العلم آنذاك ومن انتهت إليه علومهم فيما بعد، ذلك هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري حين قال : «كنت أجالس عبدالله بن ثعلبة بن صعير العذري أتعلم منه نسب قومي، فأتاه رجل جاهل يسأله عن المطلقة واحدة ثنتين، ثم تزوجها رجل ودخل بها، ثم طلقها.

على كم ترجع إلى زوجها الأول ؟

قال : «لا أدري»، اذهب إلى ذلك الرجل، وأشار إلى سعيد بن المسيب، فلزمت سعيدا، فكان هو الغالب على علم المدينة والمستفتى فيهم، وأبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وسليمان بن يسار وكان من العلماء، وعروة بن الزبير بحر من البحور، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة. فمثل ذلك أبو سلمة بن عبدالرحمن، وخارجة بن زيد، والقاسم وسالم، فصارت الفتوى إلى هؤلاء، وصارت من هؤلاء إلى سعيد بن المسيب وأبي بكر ابن عبدالرحمن وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، على كفاً من القاسم عن الفتوى، إلا أن لا يجدُ بدأ»<sup>(١)</sup>.

ومن التأمل فيما قاله الزهري وسواه يتبين أنه كان هناك تخصص دقيق لدى الشيوخ، منهم من يتخصص في الأنساب والأخبار، ومنهم من يتخصص في الفتوى والأحكام الققهية وهؤلاء كانوا أكثرهم نشاطا وأنبههم شأنًا، وأكثرهم طلابا وأتباعا.

وقد ذكر أكثر من واحد أسماء هؤلاء الفقهاء الذين آلت إليهم أمور الفتيا، وفيما يلي عرض موجز لكل منهم.

(١) طبقات ابن سعد قسم ٢ ج ٢ ص ١٢١ طبعة الشعب.

سید التابعین

سعید بن المسیب

(۵۹۴)



فقيه الفقهاء وسيد التابعين سعيد بن المسيب القرشي المخزومي، ولد لسنتين من خلافة عمر رضى الله عنه، وقد روى عن عدد من الصحابة وبعض أمهات المؤمنين وكان أعلم الناس بقضايا رسول الله ﷺ وقضاء أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، حتى قال عن نفسه : « ما أحد أعلم بقضاء قضاه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وعمر منى »<sup>(١)</sup> .

وروى عنه كثير من كبار العلماء، ومن أبرز من تلقى العلم عنه محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، حتى قال عنه : «جالسته سبع حجج وأنا لا أظن عند أحد علما غيره»<sup>(٢)</sup> .

وقد لفت تميزه فى العلم والفقه نظر بعض الصحابة والتابعين حتى أن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما وجد رجلا سألته عن مسألة فقال له : إيت هذا فسله - يعنى سعيدا - ثم ارجع إلى فأخبرنى، ففعل ذلك وأخبره، فقال ابن عمر لمن حوله لما أخبر بإجابة سعيد معبرا عن إعجابه بعلمه : ألم أخبركم أنه أحد العلماء» وقال لأصحابه عن سعيد : «لو رأى هذا رسول الله ﷺ لسره»<sup>(٣)</sup> ، وكان يرسل إليه يسأله عن قضايا عمر وأحكامه.

وكان اشتهاره بالعلم وتقدمه فيه قد شاع على السنة الناس، وكان الرجل يأتى إلى المدينة المنورة فيسأل عن أفقه أهلها وأعلمهم فيوجه إلى سعيد، ومن ذلك ما روى عن ميمون بن

(١) سير اعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢١ . (٢) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١١١ .

(٣) وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٣٧٥

مهران قال : « أتيت المدينة فسألت عن أفقه أهلها، فدفعت إلى سعيد بن المسيب »<sup>(١)</sup>.

ويقول شهاب بن عباد العصري : « حججت فأتينا المدينة، فسألنا عن أعلم أهلها، فقالوا : سعيد » .

وقد بلغ من الثقة في علمه وفقهه أنه كان يفتى والصحابة أحياء وقد أعانه على الوصول إلى تلك المنزلة ما كان يتمتع به من حافظة واعية وتفان في تحصيل ألوان المعارف، حتى إنه كان لا ينسى من يلقاه من طلابه ، فقد حدث عمران بن عبد الله الخزاعي قال : « سألت سعيد بن المسيب فانتسبت له ، فقال : « لقد جلس أبوك إليّ في خلافة معاوية » ويقول : « والله ما أراه مرّاً على أذنه شيء قط إلا وعاه »<sup>(٢)</sup>.

وقال عنه ابن خلكان : « كان سعيد المذكور سيد التابعين من الطراز الأول، جمع بين الحديث والفقّه والزهد والعبادة والورع »<sup>(٣)</sup>.

وقال عن نفسه : « كنت أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد »<sup>(٤)</sup>.

وكان فيه صلاحية ورثها عن آبائه وأجداده، فقد روى عنه أن جده حزنا أتى النبي ﷺ، فقال : ما اسمك ؟

قال : حزن.. قال : بل أنت سهل.

قال : يا رسول الله اسم سماني به أبواي، وعرفت به في الناس فسكت عنه النبي ﷺ.

(١) سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٢٢٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٢٢٥ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٥

(٤) البداية والنهاية ج ٩ ص ١١١ .

قال سعيد : «فمازلنا نعرف الحزونة فينا أهل البيت»<sup>(١)</sup> .  
وقد جرّت عليه هذه الصلابة كثيرا من المتاعب حيث كان دائما  
على غير وفاق مع الولاة والحكام حاشا عمر بن عبدالعزيز وكان  
لا يأتي أحدا من الولاة، وكان عمر بن عبدالعزيز يعرف له مكانته،  
فكان إذا عرض له قضية يبعث إليه يسأله عن رأيه، ثم يأخذ به،  
وذات مرة بعث إليه من يسأله عن رأيه فى قضية من القضايا،  
ولكن الرسول دعاه إلى التوجه إلى عمر، فلما ذهب إلى عمر اعتذر  
له وقال أخطأ الرسول : إنما أرسلناه يسألك فى مجلسك، وكان  
عمر يقول : ما كان بالمدينة عالم إلا يأتيني بعلمه وكنت أوتى بما  
عند سعيد بن المسيب<sup>(٢)</sup> .

وكان سعيد قد أخذ عن أبى هريرة كل ما رواه عن رسول  
الله ﷺ ، لأنه كان قد تزوج ابنة أبى هريرة رضى الله عنه.

### أخلاقه وعبادته :

كان سعيد رجلا وقورا له هيبة عند مجالسيه فكان يغلب عليه  
الجَدُّ، ولو نظرت إليه لخيّل إليك أنك أمام رجل ممسك بموازين  
الحق والعدل بين يديه، قد تكفل بحراستها والقيام عليها، مدرك  
لمدى مسئولية الأمانة التى تحملها، فلا يجامل، ولا يغمض عينيه  
عن شيء لا يراه صحيحا، فيعلن إنكاره له، غير مبال بما يجره  
عليه ذلك من أذى، ومن أجل ذلك كانت علاقته بالولاة والحكام  
علاقة يشوبها التوتر والتربص وقد مرّ عليه أكثر من أربعين سنة

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ١٢٢ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ١٢٢ . و سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٥ .

لا يرفع الأذان إلا وهو فى المسجد ينتظر الصلاة، وكان دائما فى الصف الأول ولم يفته الجماعة إلا يوم أن عاقبه والى المدينة وطوف به فى طرقات المدينة، وجاء إلى المسجد، وقد انصرف الناس من الصلاة، فقال : هذه وجوه ما رأيتها منذ أربعين سنة وقد حج كما قال بضعا وعشرين حجة<sup>(١)</sup> .

وكان سعيد له تجارة تدر<sup>٢</sup> عليه دخلا يكفيه ليعيش عيشة راضية، ولهذا لم يكن يأخذ عطاء من الدولة، لأنه كان يرى فى قبول عطاء الدولة حجرا على رأيه، وتقيدا لحريته. وكان عنده من يقوم بأمر تجارته، فلا يشغله أمرها عن عبادته وعلمه، وكان يدعو إلى اكتساب المال من طرقه المشروعة، ليتمكن من صلة الرحم، وأداء الأمانة، وصيانة الكرامة، والاستغناء عن الخلق، ومما أثر عنه فى ذلك قوله : « لاخير قيمن لا يريد جمع المال من حله، يعطى منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس »<sup>(٣)</sup> .

وخير ما يصور وجهة نظره فى امتلاك المال قوله : « اللهم إنك تعلم أنى لم أمسكه بخلا ولا حرصا عليه، ولا محبة للدنيا، ونيل شهواتها، وإنما أريد أن أصون به وجهى عن بنى مروان، حتى ألقى الله فيحكم فىّ وفيهم، وأصل منه رحمى، وأؤدى منه الحقوق التى فيه. وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار »<sup>(٤)</sup> .

وقد نما ماله حتى ترك عند وفاته ثلاثة آلاف دينار، وقال :

(١) سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٢٢٤ . (٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠١ .

(٣) البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠١ .



والله ما تركتها إلا لأصون بها ديني وحسبي، وكان يقول : «من استغنى بالله افتقر الناس إليه»<sup>(١)</sup> .

ولهذا كان سعيد في بحبوحة من العيش، وقد وضح أثر ذلك في مظهره وملبسه، فقد كان حريصا على نظافة ملبسه وحسن هيئته تحدثا بنعمة الله عليه، وكان بمسلكه ذلك يعطى المثل العملى للعالم فى نزاهته ونظافته، وحسن هندامه اقتداء برسول الله ﷺ، فقد كان أجمل الخلق منظرا، وأعجبهم مظهرا، وأنظفهم ثوبا، وكان يمشط شعره، ويدهن الطيب حتى تشم رائحته العطرة من بعيد، وإذا مسَّ أحد يده يبقَى أثر الطيب عالقا بها مدة طويلة، وكل تعاليمه ﷺ وتوجيهاته تعلم الناس أن يحرصوا على بهاء المنظر، وجمال الصورة، وطيب الرائحة، وحسن السمْت<sup>(٢)</sup> . ولهذا من فقه الرجل أن يقتدى برسول الله ﷺ، لأن القرآن الكريم يقول : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾<sup>(٣)</sup> . وسعيد رحمه الله كان حريصا على أن يقفو خطى رسول الله ﷺ، ويعلم الناس سنته وهديه.

### موقف سعيد من أحداث عصره :

كان الامويون والزييريون يتنازعون على الحكم فى أيام سعيد، وكانت المدينة أحيانا تكون تحت حكم الامويين وأحيانا تحت حكم الزييريين، وكان الوالى يحاول أن ينفذ سياسة الجهة التى ينتمى إليها، وكان مقر حكم الزييريين بمكة ومقر حكم الامويين بدمشق،

(١) راجع طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٤٣ . (٢) راجع مسار الدعوة فى العهد المكي ص ١٧

(٣) سورة الاحزاب الآية ٢١ .

ولم يكن سعيد راضيا عن هؤلاء ولا أولاء.  
 وحدث أن كان والى المدينة فى فترة يدعى جابر بن الأسود  
 ابن عوف الزهرى من طرف الزيبريين، ودعا الناس إلى البيعة  
 لعبدالله بن الزيبر، وكان سعيد يرى أن الأمور غير مستقرة وليس  
 من الحكمة المبايعة فى ذلك الظرف غير المناسب، ولذلك لما دعاه  
 الوالى إلى البيعة قال : « لا.. حتى يجتمع الناس»، فكبر على الوالى  
 موقف سعيد وضربه ستين سوطا، ولما بلغ ما صنع ابن الزيبر  
 لم يرض بما صنعه واليه وكتب إليه يلومه على ما صنعه مع  
 سعيد<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن الوالى كان قد نقم على سعيد أنه عاب عليه أن  
 يتزوج، قيل أن تنتهى عدة الزوجة الرابعة التى طلقها، ويرى  
 سعيد أنها مادامت فى العدة فهى فى حكم الزوجة، ولا يرى صحة  
 الزواج إلا بعد انتهاء العدة وقد أدرك سعيد أن الوالى يريد أن  
 يعاقبه على إعلانه عدم صحة زواجه، ولذلك لما كانت السياط  
 تنهال على سعيد صاح معلنا عن رأيه قائلا : والله ما ربعت على  
 كتاب الله، وإنك تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة، وما هى  
 إلا ليال فاصنع ما بدالك، فسوف يأتيك ما تكره، ولم يمكث إلا  
 قليلا حتى قتل ابن الزيبر<sup>(٢)</sup>.

وليس معنى امتناع سعيد عن البيعة لابن الزيبر أنه كان يوالى  
 الأمويين، بل كان يواجه الخطأ مهما كان مصدره، فكان إذا رأى

(١) ابن سعد جـ ٧ ص ١٢٢ (٢) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٩.

أمرا غير سديد رفضه وأعلن عن عدم قبوله وامتنع عن الاستجابة له مهما كلفه ذلك من أمر.

وكان الوضع السياسى قد تغير فى المدينة بعد أن قتل ابن الزبير، وخلص الأمر للأمويين، وكان هناك وال أموى هو هشام ابن إسماعيل المخزومى، وفى عام ٨٤ هـ توفى عبدالعزیز بن مروان وكان مبايعا له بولاية العهد بعد عبدالملك، فلما مات عقد عبدالملك بولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان، ودعا إلى أخذ البيعة لهما، وأخذ والى المدينة البيعة إلا أن سعيدا أبى أن يبایع محتجا بأنه لا يجوز أن تكون بيعتان معا، فكتب الوالى إلى عبدالملك يخبره باستجابة أهل المدينة إلى المبايعة وامتناع سعيد، فكتب عبدالملك إلى واليه هشام أن يعرضه على السيف، فإن لم يتراجع طلب إليه أن يجلدَه خمسين جلدة، وأن يطوف به أسواق المدينة، ويبدو أن الوالى كان يرغب فى أن لا يفعل ذلك بسعيد، فأتطع بعض زملاء سعيد من الفقهاء على خطاب عبدالملك، لعلهم يحاولون إقناعه بأن يستجيب للبيعة، ولا يتعرض لهذا الموقف الذى لا يحب أن ينسب إليه، وهو لا يستطيع أن يتقاضى عن تنفيذ ما جاء فى رسالة عبدالملك خشية منه، وإن كانت بعض الروايات تقول إنه كان قد بدأ بإيقاع العقاب بسعيد لما امتنع عن البيعة، وأن عبدالملك بعث إليه يلومه على فعله بسعيد، ولكننا نميل إلى الأخذ بالرواية التى تقول إن عبدالملك هو الذى أمر بإيقاع العذاب بسعيد حتى لا يشجع التهاون معه غيره على الامتناع عن المبايعة، وقد يضاف إلى ذلك أن عبدالملك كان فى نفسه شىء من سعيد لأنه رفض أن يزوج ابنته للوليد بن عبدالملك، كما سنبين ذلك فيما بعد.

فلما أطلع الوالى الفقهاء على كتاب عبدالمك في شأن سعيد توجه عروة بن الزبير وسالم بن عبدالله وسليمان بن يسار إلى منزل سعيد، وقالوا : إنا قد جئناك فى أمر : قد قدم كتاب فيك من عبدالمك بن مروان إن لم تباع ضربت عنقك، ونحن نعرض عليك خصالا ثلاثا، فأعطنا إحداهن، فإن الوالى قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب، فلا تقل لا ولا نعم.

قال : يقول الناس بايع سعيد بن المسيب ما أنا بفاعل، وكان إذا قال لا لم يطيقوا عليه أن يقول نعم.

قال : مضت واحدة، وبقيت اثنتان.

قالوا : فجلس فى بيتك، فلا تخرج إلى الصلاة أياما، فإنه يقبل منك، إذا طلبت فى مجلسك فلم يجده.

قال : وأنا أسمع الأذان فوق أذنى : حى على الصلاة حى على الفلاح، ما أنا بفاعل.

قالوا : مضت اثنتان، وبقيت واحدة، واقترحوا عليه أن ينتقل من مجلسه إلى غيره، فإذا أرسل الوالى إليه فلم يجده أمسك عنه.

قال : فرقا «خوفا» لمخلوق، ما أنا بمتقدم لذلك شبرا، ولا متأخر شبرا.

فخرجوا عنه وخرج إلى الصلاة، صلاة الظهر، فجلس فى مجلسه الذى كان يجلس فيه، فلما صلى الوالى بعث إليه فأتى به فقال : إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تباع ضربنا عنقك.

قال سعيد : نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين.

فلما رآه لا يجيب أخرج إلى السدة، فمدت عنقه وسلت عليه السيف، فلما رآه قد مضى «ولم يتراجع» أمر به. فجرد من ثيابه

فإذا عليه تبان شعر «كساء يلبس ليستر العورة». وكان بعض غلمان الوالى قد أخبروه أنه سيقتل فارتدى ذلك الكساء حتى لا تنكشف عورته إذا قتل.

فقال : لولا ظننت أنه القتل ما لبسته، وأمر الوالى فضرب خمسين سوطا، ثم أمر أن يطاف به فى أسواق المدينة.

فلما رده، والناس منصرفون من صلاة العصر قال : إن هذه الوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة<sup>(١)</sup>.

وذلك لأنه تعود أن يكون فى المسجد قبل الأذان ينتظر الصلاة، وكان مكانه دائما فى الصف الأول.

ويبدو أن المحاولة قد تكررت مع سعيد قام بها آخرون من أصحابه وأقرانه، ولكنه كان يصبر دائما على عدم الاستجابة، والذى يدرس حياة سعيد بن المسيب يعرف أن الرجل كان إذا قال لا، لا يمكن أن يثنيه عن قوله أحد ولذلك كانت علاقته سيئة بينى مروان، وكان يعرف عنه عدم رضاه عنهم، لأنهم لم يلتزموا التزاما كاملا بما يدعو إليه الإسلام فى نظام الحكم القائم على مبدأ الشورى.

### السجن والمقاطعة

بعد أن عوقب سعيد بالجلد والتشهير به فى طرقات المدينة، زج به إلى السجن ، وقضى به فترة لم تنقطع فيها محاولة الوالى أن ينتزع منه الموافقة على البيعة للوليد ولسليمان أملا فى أن يستجيب ويخلى سبيله، وكان يستعين على الوصول إلى ما يريد

(١) راجع حلية الاولياء جـ ٢ ص ١٧١، ١٧٢، وراجع كذلك سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٣١.

بكل من له صلة قرابة بهما أو مودة؛ فقد توجه إلى السجن أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أحد الفقهاء السبعة، وتكلم معه في موقفه من الوالى، وموقف الوالى منه، ولام سعيدا على ما أظهره من عدم الميلاة بالوالى على الرغم من مداراته له ويبدو أن الحوار بينهما قد اشتد حتى ضاق به سعيد، كما يتبين من المحاوراة التالية :

قال له أبو بكر : إنك خرقت به «يعنى استهزأت به».

قال سعيد : يا أبا بكر، اتق الله وأثره على ما سواه. وأخذ أبو بكر يردد اتهامه لسعيد قائلا : إنك خرقت به ولم ترفق حتى ضاق به سعيد، وعاودته حدته فقال له : إنك والله أعمى البصر أعمى القلب.

ولما خرج أبو بكر من عند سعيد بعث إليه هشام يسأله إذا كان سعيد قد لان.

فقال أبو بكر : والله ما كان أشد لسانا منذ فعلت به ما فعلت ، فاكفف عن الرجل<sup>(١)</sup> .

ومن دراسة ما روى حول الفترة التى قضاها سعيد فى السجن يمكن أن نتعرف على بعض الحقوق التى كانت تقدم للسجناء فى ذلك العهد المتقدم، فلم يكن هناك حظر على أهل السجن أن يقدموا إليه من الطعام والملابس والفراش ما يريدون بدون أن يتدخل الحكام فى ذلك، ونحن نعرف من صحبتنا لحياة سعيد فى الصفحات السابقة أنه كان فى بحبوحة من العيش، ولذلك لما حبس صنعت له ابنته طعاما كثيرا، وبعثت به إليه، فلما جاءه ما أعدت ابنته دعا برجل يسمى أسلم بن أمية، وقال له :

(١) راجع سيد التابعين ص ٣٧ - ٣٨.

أذهب إلى ابنتي ، فقل : لا تعودى لمثل هذا أبداً، فهذه حاجة هشام ابن اسماعيل، يريد أن يذهب مالى، فأحتاج إلى ما فى أيديهم، وأنا لا أدرى ما أحبس، فانظرى إلى القوت الذى كنت أكل فى بيتى. فابعثى به إلى<sup>(١)</sup>.

وقدم هذه النصيحة إلى رجل آخر كان معه فى السجن، وكان أهله يبعثون إليه بالوان الطعام، فنصحه سعيد قائلاً : أتريد أن تجلس هاهنا، كف عنك هذا.

ونستطيع أن ندرك مما سبق مدى الحرية التى كان يتمتع بها السجناء، مما يرجو نزلاء السجون فى أيامنا هذه أن يتمتعوا بمثله وكان يسمح لهم بالزوار بدون حرج، فقد حدث عبدالله بن يزيد الهذلى قال : دخلت على سعيد بن المسيب السجن، فإذا هو قد ذبحت له شاة، فجعل الإهاب على ظهره، ثم جعلوا له بعد ذلك قضبا رطبيا «نباتا رطبيا» وكان كلما نظر إلى عضديه، قال : اللهم انصرنى من هشام<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن خرج من السجن لم يترك وشأنه بل حرم عليه الجلوس إلى أحد، وحيل بين الناس وبين الجلوس إليه بما نسميه فى عرفنا المعاصر بالمقاطعة الاجتماعية (العزل).

ولكنه كان يذهب إلى مجلسه كعادته، ولم يكن يجرؤ أحد على مجالسته، فقد دخل مسجد المدينة رجل يسمى يونس القزى، فوجد سعيدا يجلس وحده، فتساءل ما شأنه، فأخبر أنه نهى أن يجالسه أحد وكان سعيد لا يحب أن يؤذى أحد بسببه، فكان إذا جلس إليه شخص أخبره أن الوالى منع الناس من مجالسته، وأنه يخشى أن يناله أذى بسبب هذه المجالسة ، كان يقول ذلك لمن لا يعرف الحظر إبراءً لذمته<sup>(٣)</sup>.

(١) راجع المعرفة والتاريخ ج ١ ص ٤٧٤، وطبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٢٧.

(٢) راجع سيد التابعين ص ٢٧.

(٣) راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٧، وسيد التابعين ص ٢٨.

اعتزازه بنفسه :

كان سعيد لا يذهب للقاء أحد من خلفاء بني مروان ولا يستجيب لهم إذا دعوه.

فقد حدث ذات يوم أن كان عبدالملك بن مروان بالمدينة وأراد أن يستريح في وقت الظهيرة، ولكن النوم استعصى عليه، فطلب إلى حاجبه أن يستدعي له أحدا ممن في المسجد يتحدث إليه، وخرج الرجل إلى المسجد، فوجد سعيدا في حلقتة، فوقف بحيث يراه سعيد، ثم أشار إليه بإصبعه يستدعيه، ليذهب معه، وانطلق الحاجب ظاناً أن سعيدا سيتبعه، ولكنه لم يتحرك من مكانه.

فقال الحاجب « لا أراه فطن، ثم عاد إليه ودنا منه، ثم غمزته وقال : ألم ترني أشرت إليك؟

قال سعيد : وما حاجتك ؟

قال : أجب أمير المؤمنين.

فقال : إلى أرسلك ؟

قال : لا، ولكن قال : انظر بعض أحداثنا، فلم أر أحدا أهياً منك.

قال : اذهب فأعلمه، أنى لست من أحداثه.

فخرج الحاجب، وهو يقول ، ما أرى هذا الشيخ إلا مجنوناً، وذهب فأخبر عبد الملك.

فقال عبدالملك : ذاك سعيد بن المسيّب، فدعه<sup>(١)</sup> .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي رفض فيها سعيد لقاء عبدالملك، فقد قدم المدينة بعد أدائه فريضة الحج، ووقف على باب المسجد، وأرسل إلى سعيد بن المسيّب

(١) راجع سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٢٢٦.



رجلا يدعوه إليه، وطلب إليه ألا يحركه فأتاه الرسول، وقال : أجب أمير المؤمنين واقفا بالباب، يريد أن يكلمك.

فقال سعيد : ما لأمير المؤمنين إلى حاجة، ومالي إليه حاجة، وإن حاجته لي غير مقضية.

فرجع الرسول إلى عبدالمك وأخبره بما سمع، فقال ارجع ، فقل له : إنما أريد أن أكلمك. ولا تحركه فرجع إليه فقال : أجب أمير المؤمنين فرد عليه مثلما رد عليه المرة الأولى.

واشتد الغيظ بالرسول فقال : لولا أنه تقدم إلى فيك ما ذهبت إليه إلا برأسك، يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك تقول مثل هذا.

فقال سعيد : إن كان يريد أن يصنع بي خيرا فهو لك، وإن كان يريد غير ذلك فلا أحل حيوتي<sup>(١)</sup> حتى يقضى ما هو قاض.

فعاد الرجل إلى عبدالمك فأخبره، فقال : رحم الله أبا محمد أباي إلا صلابته<sup>(٢)</sup>.

وقد تكرر نفس الموقف مع الوليد بن عبدالمك لما آلت إليه الخلافة. فقد وصل إلى المدينة، ودخل المسجد فرأى شيخا قد اجتمع عليه الناس.

فقال : من هذا ؟

قالوا : سعيد بن المسيب.

فلما جلس أرسل إليه، فأتاه الرسول.

فقال : أجب أمير المؤمنين.

فقال سعيد : لعلك أخطأت باسمي، أو لعله أرسلك إلى غيري

(١) يعني لا أتحرک من مكاني.

(٢) راجع سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٢٢٧، وابن سعد ج ٥ ص ١٢٩.

فرد الرسول، فأخبره، فغضب وهم به.  
فتدخل الناس، وقالوا : يا أمير المؤمنين : فقيه المدينة، وشيخ  
قريش، وصديق أبيك، لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه، وما زالوا به  
حتى هدا غضبه، وتركه وشأنه<sup>(١)</sup>.  
أسرة سعيد :

كان سعيد قد تزوج ابنة أبي هريرة، وكانت قد أخذت عن أبيها  
كثيرا مما رواه عن رسول الله ﷺ، ويمكن أن نتصور منزلا وأسرة  
ربتها ابنة أبي هريرة وربها سعيد بن المسيب كيف تمضى الحياة  
فيه، وكيف ينشأ أبناء هذا البيت، إن التاريخ يحدثنا أن سعيدا كان  
له ابن يسمى محمدا ولذلك كانوا ينادونه بـ «أبو محمد» وأن  
محمدا هذا كان مرجعا في علم الأنساب حتى إن سعيدا كان إذا  
جاءه من يسأل عن الأنساب أحاله إلى ابنه محمد وكان له ابنة،  
حاول عبدالملك كما سبق أن أشرنا أن يزوجها لابنه الوليد، ولكن  
سعيدا لم يوافق على هذا الزواج لاعتبارات كثيرة في مقدمتها عدم  
رضاه عن سياسة بنى مروان وسعيد هذا الذي يرفض أن يزوج  
ابنته إلى الوليد بن عبدالملك ولي العهد والخليفة فيما بعد يعرض  
ابنته هذه على طالب فقير من طلابه لا يملك أكثر من ثلاثة دراهم  
في قصة مثيرة، ولعلنا نتساءل قبل أن نعرض الصورة التي تم  
بها الزواج عن مدى ما كانت تتمتع به ابنة سعيد من العلم  
والجمال، أما العلم فكانت قد أخذت علم أبيها حتى إنها في شهر  
العسل من زواجها أغنت زوجها عن التردد على حلقة أبيها، وأنها  
كانت على جانب كبير من الجمال أما قصة الزواج فيرويها كثير

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٧.

ابن أبي وداعة تلميذ سعيد فيقول : كنت أجالس سعيد بن المسيب، ففقدني أياما، فلما جئته قال : أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلي فاشتغلت بها.

فقال : ألا أخبرتنا. فشهدناها ؟ ثم قال : هل استحدثت امرأة؟ فقلت : يرحمك الله، ومن يزوجني، وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟

قال : أنا.

فقلت : وتفعل !؟

قال : نعم ، ثم تحمّد صلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين أو ثلاثة.

فقمت، وما أدري ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلي، وجعلت أفكر فيمن أستدين، فصليت المغرب، ورجعت إلى منزلي، وكنت وحدي صائما، فقدمت عشائي أقطر، وكان خبزا وزيتا، فإذا بابي يقرع، فقلت : من هذا؟

فقال : سعيد.

فأفكرت في كل من اسمه سعيد إلا ابن المسيب، فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فخرجت، فإذا سعيد فظننت أنه قد بدا له «يعنى غير رأيه». فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إليّ فأتيك؟

قال : لا، أنت أحق أن تؤتى، إنك كنت رجلا عزبا، فتزوجت فكرهت أن تبسبب الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها. فدفعها في الباب، ثم رد الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم وضعت

القصة فى ظل السراج لكى لا تراها، ثم صعدت إلى السطح، فرميت الجيران، فجاءونى، فقالوا : ما شأنك؟! فآخبرتهم، ونزلوا إليها، وبلغ أُمى، فجاءت، وقالت : وجهك من وجهى حرام. إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثاً، ثم دخلت بها، فإذا هى من أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق زوج، فمكثت شهراً لا آتى سعيد بن المسيب، ثم أتيته، وهو فى حلقتة، فسلمت، فردّ على السلام، ولم يكلمنى حتى تقوض المجلس. فلما لم يبق غيرى. قال : ما حال ذلك الإنسان؟

قلت: خيراً يا أبا محمد، على ما يحب الصديق، ويكره العدو.  
قال : إن رابك شيء فالعصا.

فانصرفت إلى منزلى ، فوجه إلى بعشرين ألف درهم<sup>(١)</sup> .  
تفصيلات أخرى تكشف عن بعض العادات الاجتماعية فى ذلك العصر الذى سجلناه عن أحداث هذا الزواج هو ما جاء فى كتاب الحلية لأبى نعيم الأصفهانى، وسير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبى ولكن هناك تفصيلات أخرى تكشف عن جوانب ذات مغزى فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر جاء بها صاحب كتاب فقه الإمام سعيد بن المسيب، خلاصتها : أن ابن أبى حرملة ، لما عرف أن الطارق سعيد بن المسيب قد استولى عليه الخوف، وارتعدت قرائصه، وقال : لعل الشيخ ندم فجاء يستقيلىنى «يستعفينى» يقول : فخرجت إليه أجر رجلى، وفتحت الباب، فإذا أنا بشابة متلعة بساج «الطليسان الأخضر» ودواب عليها متاع

(١) راجع الحلية جـ ٢ ص ١٦٧ - ١٦٨، وسير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٢٢ - ٢٢٤.

وخادمة بيضاء، فسلم عليّ، ثم قال : يا عبدالله هذه زوجتك.  
 فقلت مستحييا منه : يرحمك الله، كنت أحب أن يتأخر ذلك أياما.  
 فقال لى : لم ؟ أأست أخبرتنى أن عندك أربعة دراهم ؟  
 قلت : هو كما ذكرت لك. ولكن كنت أحب أن يتأخر ذلك.  
 قال : إنها إذن عليك لغير ميمونة، وما كان الله يسألنى عن  
 عزبتك الليلية، وعندى لك أهل.

هذه زوجتك، وهذا متاعكم، وهذه خادمة تخدمكم، معها ألف  
 درهم نفقة لكم، فخذها يا عبدالله بأمانة الله، فوالله إنك لتأخذ  
 صوامة قوامة، عارفة بكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، فأتق الله  
 فيها، ولا يمنحك مكانها منى إن رأيت ما تكره أن تحسن أدبها. ثم  
 سلّمها إلىّ ومضى.

قال ابن أبى وداعة : فوالله ما رأيت امرأة قط أقرأ لكتاب الله  
 تعالى، ولا أعرف بسنة رسول الله ﷺ، ولا أخوف لله عز وجل  
 منها، قد كانت المسألة المعضلة تعيب الفقهاء، فأسأله عنها، فأجد  
 عندها منها علما.

ثم قال : فأقمت عندها ما شاء الله، ثم رزقنى الله منها حملا،  
 وكان سعيد بن المسيب كثيرا ما يسألنى عنها، فيقول : ما فعلت  
 تلك الإنسنة؟ فأقول : خيرا.

فيقول : يا عبدالله إن خفّ عليك أن تزيرواها فافعل<sup>(١)</sup> .  
 وقصة هذا الزواج تكشف عن كثير من القيم الاجتماعية، التى  
 كانت تسود المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت المبكر، وتحكم

(١) راجع فقه الإمام سعيد بن المسيب ج ١ ص ١٠٩ - ١١١ تأليف الدكتور هاشم جميل  
 عبدالله وكذلك سيد التابعين ص ٥٤ - ٥٥.

علاقات الناس، وتوجه نظرهم إلى الحياة، فلم يكن هناك مغالاة في المهور، ولم يكن هناك إرهاب لمن يرغب في الزواج بكثرة المطالب التي تعجز عنها إمكاناته، بل كان هناك تقليد حميد يجعل الحياة سهلة على من يبني أسرة جديدة، إذ كان أهل العروس يقدمون لها ولزوجها ما يعينهما على بدء حياتهما في هدوء وسلام .

ومن تفاصيل الحوار الذي دار بين سعيد وزوج ابنته رأينا أن سعيدا استأذنه في أن يسمح لها بزيارة بيت أبيها من وقت لآخر، ويبدو أن سعيدا كانت صلواته الاجتماعية محدودة فقد روى عنه أنه قال : ما ضمنى سقف بيت بالمدينة إلا أنى كنت أزور بنتا لى . وكانت زوجة سعيد حريصة على أن يتهاى لابنتها حياة زوجية هادئة، وكانت أيضا على جانب كبير من الإلمام بأحكام الدين، والعلم بسنة رسول الله ﷺ، وحسبها أنها ابنة أبى هريرة صاحب رسول الله ﷺ، وزوجة سعيد بن المسيب، ويبدو أنها لم تكن تذهب لزيارة ابنتها إلا نادرا بدليل أن زوج ابنتها لم يرها فى داره إلا أثناء وضعها ويتأكد ذلك من متابعة الحوار التالى :

قال ابن أبى وداعة : رجعت إلى الدار، وإذا بها شخص ما رأيتَه قط. فرجعت موليا.

فنادتنى من ورائى : يا عبيدالله، ادخل فقد أحلّ الله لك هذه النظرة.

فقلت : ومن أنت يرحمك الله ؟  
 قالت : أنا أم الفتاة يا عبدالله كيف رأيت أمك ؟  
 قلت : جزاكم الله عن أهل بيتى خيرا، لقد ربيتم فاحسنتم،  
 وأديتم فاحكمتم.

فقال: يا عبدالله، لا يمتنع مكانها منا أن ترى بعض ما تكره، فتحسن أدبها، يا عبدالله، لا تملكها من أمرها ما جاوز نفسها، فإن المرأة ريحانة، وليست قهرمانة<sup>(١)</sup>، ولا تكثر التيسم في وجهها فتستخف بك، بارك الله لكما في المولود، وجعله مباركا خائفا لله، ووقاه فتنة الشيطان. وجعله شبيها بجده سعيد، فوالله إنى لزوجته منذ أربعين سنة. ما رأيت عصى الله تعالى معصية، ثم خرجت، فلم أر لها وجها ثمانى عشرة سنة حتى قضى عليها الموت<sup>(٢)</sup>.

### صور من تعامله مع الناس :

كان لسعيد مولى يتولى أمر تجارته وكان يخوض معه في الحديث، ويتبسط معه في القول، راجيا أن يدفعه ذلك إلى الأمانة في المعاملة، والصدق في الحديث، ومما روى عنه حول ذلك أنه كان يقول له: اتق الله ولا تكذب على كما كذب مولى ابن عباس على ابن عباس، وكان يحاسبه على الدائق في تجارته في الوقت الذي يرفض فيه أن يأخذ ثلاثين ألفا اجتمعت له عند بنى مروان من العطاء الذي كان له.

ومما يؤخذ عليه على الرغم من عبادته وتقواه أنه كان أحيانا يبدو عليه الاعتزاز بالأرومة، والأصل مما يعتبر أمرا غريبا عنه في مثل علمه وتقواه، إلا أنه كان لا يلبث أن يعود إلى طبيعته حينما يتنبه إلى أن مثل هذه النظرة لا تليق برجل في مثل مكانته من العلم والسن فقد روى رجل قرشي قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب فقال لى يوما: من أخوالك؟

(١) قهرمانة كلمة فارسية، ومعناها المتصرف.

(٢) راجع فقه الإمام سعيد بن المسيب جـ ١ ص ٢١ - ٢٢.

فقلت : إن أمى فتاة «يعنى أمة».

قال : كأتى تقصت من عينيه ، فأمهلت حتى أتى عليه سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم، وخرج من عنده.

فقلت : يا أبا عبدالله، من هذا؟

فقال : سبحان الله، أتجهل هذا من قومك؟ هذا سالم بن عبدالله ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم.

فقلت : من أمه ؟

قال : فتاة.

ثم أتى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فجلس عنده، ثم نهض.

فقلت له : يا أبا عبدالله، من هذا؟

فقال : ما أعجب أمرك أتجهل مثل هذا من قومك؟ هذا القاسم ابن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

قلت : فمن أمه ؟

قال : فتاة.

وأناه على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، فقلت له : يا أبا عبدالله، من هذا ؟

قال : هذا الذى لا يسع مسلما جهله، هذا على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم.

قلت : فمن أمه ؟

قال : فتاة

قلت : إنى رأيتنى تقصت من عينيك لما علمت أن أمى أم ولد، فما لى بهؤلاء أسوة.

قال : فجللت فى عينيه جدا<sup>(١)</sup>.

(١) راجع سيد التابعين ص ٥٩، وفقه الإمام سعيد ج ١ ص ١٠٥-١٠٦.



**موقف سعيد من الشعر والغناء :**

كان سعيد - رحمه الله - رجلا عربى اللسان، واسع الثقافة، والشعر كما يقولون ديوان العرب، وما كان لرجل فى ثقافة سعيد وعلمه أن يكون بعيدا عن الشعر والشعراء فقد روت كتب الأدب أنه كان يستمع للشعراء ويستنشدهم، وأنه كان يفاضل بين الشعراء، وكان إذا سمع غناء راقيا أطربه ذلك وأبدى استحسانه. فقد روى صاحب الأغاني عن عبدالرحمن بن حرملة قال كنت عند سعيد بن المسيب، فجاء ابن قيس الرقيات، فهشّ وقال : مرحبا بظفر من أظفار العشيرة، ما أحدثت بعدى ؟ قال : قد قلت أبياتا، وأستفتيك فى بيت منها، فاسمعها . قال : هات، فأنشده :

هل للديار بأهلها علم

أم هل تبين فينطق الرسم

قالت رقية : فيم تصرمنا

أرقى ليس لوجهك الصرم<sup>(١)</sup>

تخطو بخالين حشوهما

ساقان مار<sup>(٢)</sup> عليهما اللحم

يا صاح، هل أبكاك موقفنا

أم هل علينا فى البكا إثم

قال سعيد : لا والله ما أبكاني ، قال ابن قيس الرقيات

بل ما بكائك منزلا خلقا

قفرا يلوح كأنه الوشم

(٢) مار : تردد وتحرك.

(١) الصرم : القطيعه والهجر.

فقال سعيد : اعتذر الرجل، ثم أنشد :  
 أتلبث في تكريت لا في عشيرة  
 شهود، ولا السلطان منك قريب  
 وأنت امرؤ للحزم عندك منزل  
 وللدين والإسلام منك تصيب  
 فقال سعيد : لا مقام على ذلك، فأخرج منها.  
 قال : قد فعلت.

قال : قد أصبت أصاب الله بك (١) .

فأنت ترى من هذا الخبر أن سعيدا كان يستقبل ابن الرقيات، ويتابع إنتاجه، ويسمع له، بدليل قوله له : ما أحدثت بعدى ؟ وأنه كان يتجاوب مع ابن الرقيات، ويعلق على قوله، وكون ابن الرقيات يأتيه ويتردد عليه وينشده شعره ، يعنى أنه يدرك اهتمام سعيد بالشعر، وقدرته على استحسان الحسن منه، وتأثره به وليس هذا فقط، بل كان سعيد يفاضل بين الشعراء، ويفتخر بشعراء قريش، ويقارن بينهم وبين سواهم، وإليك هذا الخبر الذى ساقه صاحب الأغاني الذى يرويه عن أبى مولى بنى عامر بن لؤى قال : دخلت مسجد رسول الله ﷺ مع نوفل بن مساحق، وإنه لمعتمد على يدي، إذ مررنا بسعيد بن المسيب فى مجلسه، وحوله جلساؤه فسلمنا عليه، فرد علينا ثم قال لنوفل : يا أبا سعيد، من أشعر، صاحبنا أم صاحبكم ؟ يريد عبدالله بن قيس، أو عمر بن أبى ربيعة.

فقال نوفل : حين يقولان ماذا يا أبا محمد؟

قال : حين يقول صاحبنا :

(١) راجع الأغاني ج ٥ ص ٩١ - ٩٢ طبع دار الكتب.

خليلي ما بال المطايا كأنما  
 نراها على الأدبار بالقوم تنكص<sup>(١)</sup>  
 وقد قطعت أعناقهن صباية  
 فأنفسنا مما يلاقين شُخصُ  
 وقد أتعب الحادي سراًهنّ وانتحي  
 بهنّ فما يالو<sup>(٢)</sup> عجول مُقلّص<sup>(٣)</sup>  
 يزدن بنا قريبا فيزداد شوقنا  
 إذ زاد طول العهد والبعد ينقص  
 ويقول صاحبك ما شئت.  
 فقال له نوفل : صاحبكم أشعر في الغزل، وصاحبنا أكثر  
 أفانين شعر.  
 فقال سعيد : صدقت.  
 فلما انقضى ما بينهما من ذكر الشعر، جعل سعيد يستغفر الله،  
 ويعقد بيده حتى وقى مائة.  
 فقال البكري في حديثه عن عبد الجبار : قال مسلم : فلما  
 انصرفنا. قلت لنوفل : أترأه استغفر الله من إنشاد الشعر في  
 مسجد رسول الله ﷺ ؟  
 فقال : كلا هو كثير الإنشاد والاستشهاد للشعر فيه، ولكن  
 أحسب ذلك للفخر بصاحبه<sup>(٤)</sup> .  
 وهذا الخبر يلقي ضوءاً على الاهتمام بالشعر والمفاضلة بين

(١) تنكص : ترجع

(٢) يالو : يقصر

(٣) مقلص : جاد في السير مشمر

(٤) راجع للأغاني جـ ١ ص ١١٣ - ١١٤ و جـ ٥ ص ٩٣.

الشعراء وتتبع إنتاجهم إلى جانب الحاسة النقدية التي كان يتمتع بها سعيد ومحدثه حينما اتفقا على تقدم كل من الشاعرين في المجال الذي يبرز فيه، وأن سعيدا كان أكثر من الإنشاد للشعر في مجلسه والاستشهاد به.

وعلى الرغم من أن سعيدا كان ينتصر لابن أبي ربيعة إلا أن ذلك لم يمنعه من أن ينقده ويعيب عليه إن رأى في شعره ما يؤاخذ عليه فقد أنشد قول عمر بن أبي ربيعة :

وغاب قُمير كنت أرجو غيوبه

وروح رُعيان ونوم سُمير

فقال : ما له قاتله الله، لقد صغر ما عظم الله، يقول الله عز وجل : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ آدَاءَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (٣٩) (١).

وكذلك كان سعيد يطرب للغناء الجيد، ويبدى استحسانه إذا سمع صوتا عذبا يتغنى، ومن ذلك ما رواه صاحب الأغاني أن سعيدا كان يُمّر في بعض أزقة مكة، فسمع الأخضر الحرابي يتغنى في دار العاص بن وائل :

تضوع مسكا بطن نعمان إذ مشت

به زينب في نسوة خفرات

فضرب برجله، وقال : هذا والله مما يلذ استماعه (٢).

وقد أورد صاحب زهر الآداب هذا الشعر مطولا فقال : سمع سعيد منشدا يردد :

(٢) راجع الأغاني ج ٦ ص ٢٠٣.

(١) راجع الأغاني ج ١ ص ٨٤.

فلم تر عيني مثل سرب رأيتَه  
 خرجن من التنعيم معتمرات  
 مررن بفتح ، ثم رحنَ عشية  
 يلبين للرحمن مؤتجرات  
 ولما رأت ركب النميري أعرضت  
 وكنّ بأن يلقينه حذرات  
 دعت نسوة شُمَّ العرانيين بزلًا  
 نواعم لاشعثًا ولا غبرات  
 فأبرزن لما قمن يحجبن دونها  
 حجابا من القسي والحبرات  
 تزوع طيبا بطن نعمان إذ مشت  
 به زينب في نسوة عطرات  
 يخبئن أطراف البنان من التقى  
 ويخرجن شطر الليل معتجرات  
 فلما أنصت سعيد لهذه الأبيات قال : هذا والله مما يلذ استماعه.  
 ثم تابع المنشد :  
 وليست كأخرى وسعت جيب درعها  
 وأبدت بنان الكف للجمرات  
 وغالت ببان المسك وجفأ مرجلا  
 على مثل بدر لاح في الظلمات  
 وقامت ترائي بين جمع فأفتنت  
 برؤيتها من راح من عرفات<sup>(١)</sup>

(١) راجع زهر الآداب ج ١ ص ٢١٥ - ٢١٦ تحقيق د. زكي مبارك، والعلماء بين التزمت والتسامح ص ٢٢، ٢٣ للمؤلف.

وبعض الرواة ينسب الأبيات الثلاثة الأخيرة إلى سعيد ولا أظن ذلك صحيحا، لأنها تكمل الصورة التي رسمها الشاعر لهؤلاء اللائي خرجن معتمرات ييغين المثوبة والأجر ويقارن بينهن وبين من خرجن للفتنة وعرض محاسنهن.

### معارف سعيد بن المسيب :

أثر عن سعيد بن المسيب معرفته بكثير من المعارف السائدة فى عصره، وإن كانت معرفته بالفقه قد غلبت على ما سواها إلا أن المراجع قد ذكرت له جوانب من العلوم قد شارك فيها، وكان له فيها رأى يرجع إليه، ومن ذلك معرفته بالأخبار والأنساب وكانت العرب تهتم بهذا اللون من المعارف وتحافظ به على أنسابها وأيامها، وقد كان معروفا عن أبى بكر - رضى الله عنه - أنه أعرف الناس بالأنساب، وقد تطور هذا اللون من المعرفة إلى أن صار يعرف بعلم التاريخ، فكان العلم بالأخبار يشمل أنساب العرب، وأيامها وأحداثها، ونظرا لأن الأنساب كانت تحتل مكانة خاصة عند العرب، فسموا هذا اللون من المعرفة بعلم النسب، ورجل مثل سعيد قرشى ومن علماء المدينة بل شيخ علمائها قد حصل من المعرفة بتاريخ قومه وأيامهم وأنسابهم ما لا يسع العالم من أمثاله الجهل به.

إلا أنه كان يرى أن بعض الناس يتخذون من المعرفة بالأنساب وسيلة للكشف عن سوءات بعض القبائل، فأثر البعد عن هذا العلم والانصراف عنه كلية، لأنه رأى فيه إشاعة لروح التفاخر والعصبية التى رفضها الإسلام، وقد يفهم هذا المعنى من رده على من جاء يطلب إليه أن يعلمه النسب، قال يحيى بن عبيدالله :

جئت سعيد بن المسيب، فسلمت عليه، فردّ على فقلت : علمنى النسب.

فقال : أنت تريد أن تسابّ الناس ؟ من أنت ؟

قلت أنا يحيى بن طلحة، فضمنى إليه، وقال : إئت محمداً ابني فإن عنده ما عندي، إنما هى شعوب وقبائل وبطون وعمائر وأفخاذ وفصائل<sup>(١)</sup>.

ومما روى عنه فى ذلك أنه قال : كان ولد نوح ثلاثة. والناس كلهم ولد نوح. فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب والسند والهند والنوبة والزنج والبربر وغيرهم، ويافت أبو الصقالية والترک واللان والخزر ويأجوج ومأجوج<sup>(٢)</sup>.

### تعبير الرؤى :

روت كتب السير أن سعيد بن المسيب كان ذا مقدرة فائقة على تعبیر الرؤى، وقد روى ابن سعد أن سعيداً أخذ علم تعبیر الرؤى عن أسماء بنت أبى بكر<sup>(٣)</sup>، وأن ابن سيرين قد أخذ علمه فى تعبیر الرؤى عن سعيد.

وقد عرف عنه مقدرته على تعبیر الرؤى فكان الناس يتجهون إليه يسألونه عن تفسير لرؤاهم، ولم يقتصر ذلك على عامة الناس فقط، بل كان الحكام يحاولون أن يعرفوا منه تفسيراً لرؤياهم، وإن كانوا يبعثون إليه من يعرف منه ذلك.

ومن ذلك ما رواه ابن سعد بسنده إلى عمر بن حبيب قال : كنت جالسا عند سعيد بن المسيب يوماً، وقد ضاقت على الأشياء،

(١) راجع فقه الإمام سعيد ج ١ ص ١٤٤ - ١٤٥. (٢) راجع سيد التابعين ص ٧٩.

(٣) راجع ابن سعد ج ٥ ص ١٢٣.

ورهنقنى دين، فجلست إلى ابن المسيب، ما أدري أين أذهب ؟  
فجاءه رجل ، فقال : يا أبا محمد إنى رأيت رؤيا.  
قال : ما هى ؟

قال : رأيت كأنى أخذت عبدالملك بن مروان فأضجعته إلى  
الأرض، ثم بطحته، فأوتدت فى ظهره أربعة أوتاد.  
قال : ما أنت رأيتها.

قال : بلى أنا رأيتها.

قال : لا ، أخبرك أو تخبرنى.

قال : ابن الزبير رآها، وهو بعثنى إليك.

قال : لئن صدقت رؤياه ، قتله عبدالملك بن مروان. وخرج من  
صلب عبدالملك أربعة كلهم يكون خليفة.

يقول عمر بن حبيب راوى المجلس، فدخلت إلى عبدالملك بن  
مروان بالشام، فأخبرته بذلك عن سعيد بن المسيب. فسره، وسألنى  
عن سعيد وعن حاله، فأخبرته، وأمر لى بقضاء دينى وأصبت منه  
خيرا<sup>(١)</sup>.

ومما يتصل بالرؤيا السابقة أن رجلا جاءه فقال : رأيت كأن  
عبدالملك بن مروان يبول فى قبلة النبى أربع مرار.

فقال : إن صدقت رؤياك، قام من صلبه أربعة خلفاء<sup>(٢)</sup>.

وكانت له تاويلات عجيبة فيما يقص عليه من رؤى، فقد جاءه  
رجل فقال : إنى أرانى أبول فى يدى.

فقال : اتق الله فإن تحتك ذات محرم، فتبين له أن بينه وبين  
امراته رضاع<sup>(٣)</sup>.

ومن أقواله فى ذلك : الرطب فى زمانه رزق، والتمر فى الرؤيا  
رزق والكيل فى النوم ثبات فى الدين.

(٢) راجع ابن سعد ج ٥ ص ١٢٢

(١) راجع ابن سعد ج ٥ ص ١٢٢

(٣) راجع ابن سعد ج ٥ ص ١٢٢



وجاءه مرة رجل فقال : إنى رأيت كأنى جالس فى الظل فقمتم إلى الشمس.

فقال : والله لئن صدقت رؤياك لتخرجن من الإسلام.

فقال : يا أبا محمد، إنى أرانى أخرجت حتى أدخلت فى الشمس.

قال : تكره على الكفر.

فخرج الرجل فى زمان عبدالمك بن مروان فى الجيش، فأسر، وأكره على الكفر، ثم رجع، وقدم المدينة وكان يخبر بقصة هذه الرؤيا وتفسير سعيد لها وما وقع له من الأسر، وإكراهه على الخروج من الإسلام<sup>(١)</sup>.

ومن غرائب تعبيراته للرؤيا أنه جاءه رجل قد تزوج ولم ينجب، وكان يتمنى أن يكون له ولد، وقد رأى أنه قد طرح فى حجره بيض.

فسأل سعيدا عن رؤياه، فقال له : الدجاج عجمى، فاطلب نسبا

إلى العجم، فتزوج الرجل غير عربية فولد له ولد<sup>(٢)</sup>.

هذه بعض تأويلات سعيد للرؤيا التى عرضت عليه، وهى كما ترى تنبىء عن معرفة بهذا اللون من العلم الذى يقوم على قوة الملاحظة وربط الأشياء بعضها ببعض، وقضية تعبير الرؤيا أمر ذكره القرآن الكريم بالنسبة لرؤيا سيدنا إبراهيم<sup>(٣)</sup>. ورؤيا سيدنا يوسف<sup>(٤)</sup>، ورؤيا ملك مصر الذى فسرها له يوسف عليه السلام<sup>(٤)</sup>.

وكان النبى ﷺ يسأل أصحابه عن رأى رؤيا ثم يفسرها، أو يقص رؤيا رأها ويفسرها لأصحابه.

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٢٢ - ١٢٥

(٢) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٢٢ - ١٢٥

(٣) سورة الصافات آية ١٠٢ - ١١٠

(٤) سورة يوسف آية ٤، ٤٢، ٤٩

وعلماء النفس المعاصرون يقولون إن الأحلام ما هي إلا من عمل العقل الباطن، وهي تعبير عن أمور تتعلق بها نفس الشخص أو يشغله أمرها فيرى في المنام ما يشغله في اليقظة.

ولكن علماء المسلمين لهم في الرؤيا تفصيلات أخذوها من الكتاب والسنة، والأمثال العامة، وتجد في كتب السنة جزءا خاصا بالرؤيا يسمونه كتاب الرؤيا وينقسم الكتاب إلى أبواب وهناك أحاديث كثيرة تناولت الرؤيا بالتفصيل، وقد اعتمد العلماء عليها وعلى ما جاء في القرآن حينما تعرضوا لتعبير الرؤيا، ومن الأحاديث التي تحدثت عن الرؤيا ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا كان آخر الزمان لم تك رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا.

والرؤيا ثلاثة : رؤيا بشرى من الله عز وجل، ورؤيا مما يحدث الإنسان نفسه، ورؤيا من تحزين الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فلا يحدث به، وليقم وليصل ، قال أبو هريرة والقيد في المنام ثبات في الدين، والغل أكرهه» (\*).

والعلماء الذين اشتغلوا بتأويل الرؤيا بنوا تفسيرهم على بعض ما جاء في القرآن الكريم أو ما جاء في السنة أو الأمثال العامة كما استندوا فيه إلى دلالات القرآن أنهم قالوا : الحبل يعبر بالعهد، لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، والسفينة تعبر بالنجاة لقول الله سبحانه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾<sup>(٢)</sup>، والخشب يعبر

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) العنكبوت : ١٥

(\*) راجع شرح السنة للبغوي ج ١٢ ص ٢١٠

بالنفاق لقوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ خَشَبٌ مُسْتَدَةٌ <sup>(١)</sup> ﴾ ، والحجارة تعبر بالقسوة لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً <sup>(٢)</sup> ﴾ والمريض بالنفاق لقوله تبارك وتعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ <sup>(٣)</sup> ﴾ والبيض يعبر بالنساء لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ كَانَهُنَّ بَيْضٌ مُكْتُونٌ <sup>(٤)</sup> ﴾ وكذلك باللباس لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ <sup>(٥)</sup> ﴾ وأكل اللحم النبيء يعبر بالغيبة لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا <sup>(٦)</sup> ﴾ .

وأما استندوا فيه إلى دلالة الأحاديث، فمن ذلك الغراب يعبر بالرجل الفاسق، لأن النبي ﷺ سماه فاسقا، والفأرة تعبر بالمرأة الفاسقة، لأن النبي ﷺ سماها فويسقة، والقوارير تعبر بالنساء لقوله ﷺ : « يا انجشة رويدك سوقا بالقوارير » والضلع يعبر بالمرأة لقوله ﷺ « إن المرأة خلقت من ضلع » .

أما التأويل بالأمثال فمن ذلك : الصائغ يعبر بالكذاب، لقولهم أكذب الناس الصواغون، وحفر الحفرة يعبر بالمكر لقولهم : من حفر حفرة وقع فيها، والحاطب يعبر بالنمام لقولهم فى الواشى أنه يحطب عليه، ويعبر طول اليد بصنائع المعروف، لقولهم : فلان أطول يدا من فلان، ويعبر الرمي بالحجارة وبالسهم بالقذف، لقولهم رمى فلانا بفاحشة، ويعبر غسل اليد باليأس عما يأمل، لقولهم : غسلت يدي عنك .

وهناك تأويل بالأسماء أيضا، كمن رأى رجلا يسمى راشدا

(١) المنافقون : ٤	(٢) البقرة : ١٠	(٥) البقرة : ١٨٧
(٢) البقرة : ٧٤	(٤) الصافات : ٤٩	(٦) الحجرات : ١٢

يعبر بالرشد، وإن كان يسمى سالما يعبر بالسلامة<sup>(١)</sup>. ومن أراد المزيد من ذلك فليراجع شرح السنة للإمام البيهقي ج ١٢ ص ٢٠٢ - ٢٥٣ فقد أورد من هذا الباب كثيرا من التأويلات وإذا ما تتبعنا بعض ما يراه الناس تبين لنا حقيقة ما قرره العلماء المسلمون في شأن الرؤيا.

فقد حدثني فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري رحمه الله أنه رأى في المنام رجلا وسيما ذا هبة يرتدى جبة نظيفة وعمامة وله لحية بيضاء على وجه مشرق فقال له : أنا عمرو بن العاص، بلغ الشيخ الغزالي أن يكف عن التناول على وأن يخطب في مسجدي وكان هناك في ذلك الوقت محاولات مع الشيخ الغزالي رحمه الله أن يتولى الخطبة في مسجد عمرو .

يقول الشيخ الباقوري، فلما استيقظت طلبت من أهلي أن يتصلوا بالشيخ الغزالي فلم يعثروا على الرقم، وبينما نحن نحاول العثور على الرقم إذا بالتليفون يدق، وإذا بالشيخ الغزالي يتحدث فقلت له : إن لك عندي رسالة وأريد أن أؤديها. فقال إنني كنت في الحج. وأحببت أن أزورك بعد عودتي، ولما جاء بلغته الرسالة التي تلقيتها في المنام.

وقد التقيت بعد ذلك بالشيخ الغزالي - رحمه الله - وقصصت عليه رؤيا الشيخ الباقوري رحمه الله عليه، فقال لي : لقد كنت أتناول عمرو بن العاص بالنقد تعصبا لآل البيت وما روى في الكتب حول ذلك إلا أنني حرمت أن أخوض في ذلك بعد هذه الرؤيا، والرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة كما قال النبي ﷺ .

(١) راجع شرح السنة ج ١٢ ص ٢٢٠ - ٢٢٢.

**القرآن وعلومه :**

رجل بلغ درجة من العلم والمعرفة أن جعله فقهاء المدينة مقدمهم، وسماه العلماء فيما بعد سيد التابعين لابد أن يكون علمه بالقرآن وما يدور حوله من دراسات علما متميزا أهله إلى احتلال تلك المكانة المرموقة بين علماء عصره ومن جاء بعدهم حتى إن عمر بن عبدالعزيز - كما قد مرّ بنا - كان إذا أراد أن يتعرف رأيه في قضية من القضايا يبعث إليه من يستطلع رأيه في مجلسه من مسجد رسول الله ﷺ، ولا يجشمه الحضور إليه، إجلالا له وتقديرا لمكانته حتى إنه اعتذر إليه لما أخطأ أحد من أرسلهم إليه ودعاه إلى التوجه إلى عمر، فقال له عمر أخطأ الرسول إنما أردت أن يأتيني برأيك.

فقد كانت معرفة سعيد بالقرآن معرفة شاملة تتناول حفظه وتلاوته والتعبد به، وفهمه والوقوف على أحكامه وأوامره ونواهي، وإدراك مرامي، إلى جانب معرفته بأسباب نزول الآيات، والناسخ والمنسوخ حتى يتمكن من استنباط الأحكام، وهو الفقيه الذي اعترف العلماء بإمامته، إلى جانب معرفته بعلموم القراءات، وقد قرأ على علماء الصحابة كأبي هريرة وابن عباس كما ذكر صاحب كتاب غاية النهاية في طبقات القراء<sup>(١)</sup>. أنه روى عن عمر وعثمان وسعيد بن زيد، وبلغ من إتقانه لعلم القراءات أن أخذ عنه أشهر علماء التابعين من بعده وهو محمد بن شهاب الزهري.

**علم القراءات :**

وقد رويت عنه قراءات لبعض الآيات تلقاها العلماء بالقبول ومن الأمثلة على ذلك الآية السادسة من سورة المائدة التي تقول

(١) راجع غاية النهاية في طبقات القراء ج ١ ص ٣٠٨ طبع ليدن.

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَيُؤْتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَمَّا لَمْ تَكُونُوا تَشْكُرُونَ ﴾ فإن القراءة المشهورة لكلمة «ليطهركم» بفتح الطاء وتشديد الهاء، ولكن سعيداً قرأها بتسكين الطاء وفتح الهاء هكذا «ليطهركم». وكذلك قراءته للآية السابعة والخمسين من سورة الأنعام التي تقول : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ فإن القراءة المشهورة هي «يقص» بالصاد ولكن سعيداً قرأ «يقضى» بالضاد من القضاء، ويشهد لقراءته أن الآية في معنى الحكم والقضاء ألق، حيث يقول صدرها «إن الحكم إلا لله» ويقول آخرها «وهو خير الفاصلين» وكل هذه الملايسات ترجع قراءة سعيد، وبخاصة أن ابن مسعود قرأ : ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ ﴾<sup>(١)</sup>.

#### أسباب النزول :

أسباب النزول أحد فروع علوم القرآن، التي لا بد للفقهاء والمفتى أن يلم بها، لأن هذا اللون من المعرفة يعين الفقيه والمفتى على إصدار الحكم الصحيح على بعض القضايا التي تعرض له، وكثير من آيات القرآن لها أسباب نزول، وبخاصة ما يتعلق ببعض الأحكام، أو الأحداث التي تقع وينزل الوحي متحدثاً عنها. ونجد هذا اللون مبثوثاً في كتب التفسير إلى جانب كتب ألفت خصيصاً في أسباب النزول، ومنها كتاب أسباب النزول للواحدي، وكتاب لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي.

(١) راجع فقه الإمام سعيد بن المسيب جـ ١ ص ١١٤.

وقد نقل الدكتور هاشم جميل في كتابه فقه الإمام سعيد بن المسيب ما تداولته كتب التفسير منسوبا إلى سعيد بن المسيب حول أسباب النزول، وقد حصر ذلك في ثلاثة مواضع الأول الآية ٢٢٦ من سورة البقرة التي تقول : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْتُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نقل عن سعيد أنه قال «كان الإيلاء من أضرار الجاهلية، كان الرجل لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبدا، وكان يتركها لا أيما ولا ذات بعل، فجعل الله تعالى الأجل أربعة أشهر<sup>(١)</sup> . ونزلت الآية تحمي المرأة من هذا الاجحاف الذي كان يقع عليها في الجاهلية، وليحذر المسلمين من الوقوع في هذا الخطأ الظالم.

الثاني حول قوله تعالى في سورة النساء الآية ٦٥ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فقد اختصم الزبير ابن العوام وحاطب بن أبي بلتعة في من يسقى أولا، واحتكما إلى رسول الله ﷺ، ف قضى أن يسقى الأعلى ثم الأسفل.

والثالث في سورة الليل الآيتين ١٩ - ٢٠ يقول تعالى : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا إِتِبَاءَ وُجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ فقد نزلتا في أبي بكر حينما قال لامية بن خلف اتبعني بلالا ؟ فقال : نعم ابيعه بنسطاس، وكان عبدا لأبي بكر صاحب عشرة آلاف دينار وغلما ن وجوار ومواش، وكان مشركا فدعاه أبو بكر إلى الإسلام على أن يكون له ماله، فأبى فباعه أبو بكر ببلال ، فقال المشركون : ما فعل أبوبكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده فنزلت الآيتان<sup>(٢)</sup> .

(١) راجع فقه الإمام سعيد بن المسيب ج ١ ص ١١٦ - ١١٧، وراجع سيد التابعين ص ٨٢.

(٢) راجع سيد التابعين ص ٨٤.

### معرفة الناسخ والمنسوخ :

قضية النسخ من القضايا التي اختلف حولها العلماء فبعضهم يرى أن ليس هناك نسخ، وإنما هناك ظروف مختلفة تختلف الأحكام بمقتضاها، أما غالبية العلماء فيرون أن النسخ واقع، وقد ألقت كتب في الناسخ والمنسوخ وتناولت الكتب التي تحدثت عن علوم القرآن هذا الأمر بالتفصيل، ومنها كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشى، وكتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي. وإلى جانب ذلك هناك كتب ألقت خصيصا لبحث موضوع الناسخ والمنسوخ واستعراض الآيات التي تناولها النسخ والآيات التي نسختها، وتجد سردا لهذه الكتب في كتب تاريخ العلوم مثل القهرس لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة، ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ، والذين قالوا بوقوع النسخ يتناول بحثهم نسخ القرآن بالقرآن ونسخ السنة بالقرآن، ونسخ القرآن بالسنة، وفي كتاب الرسالة للإمام الشافعي، والمواقف للشاطبي تفصيل وشرح لهذه القضايا ومناقشة لأراء العلماء فيها.

وسعيد بن المسيب من العلماء الذين يرون وقوع النسخ. وقد روى ذلك عنه في موضعين من القرآن الكريم. الأول آية الوصية من سورة البقرة التي تقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأَقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ <sup>(١)</sup> ﴾ فيرى أنها نُسخت بآية المواريث في سورة النساء <sup>(٢)</sup> .

والثاني في قوله تعالى في سورة النور : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا

(٢) النساء : ١١

(١) البقرة : ١٨٠



زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى  
 الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup> ﴿ حيث يرى أنها منسوخة بقوله تعالى فى نفس  
 السورة : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾ (٢) .  
 وقد نقل ذلك عند القرطبي<sup>(٣)</sup> . فى تفسيره، وابن كثير<sup>(٤)</sup> .

### تفسير القرآن :

كان سعيد يتحاشى الخوض فى تفسير القرآن من باب الورع،  
 وكان لا يقول فى القرآن إلا إذا جاءت آية أخرى تفسر الآية التى  
 سئل عنها أو ورد بشأنها تفسير عن النبى ﷺ، أو رواية عن  
 صحابى، أو أن يفسر تفسيراً لغوياً لبعض الألفاظ، وقد أثر عنه  
 أنه قال : لا أقول فى القرآن شيئاً<sup>(٥)</sup> . وقد روى يزيد بن أبى يزيد  
 قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم  
 الناس. فإذا سألناه عن تفسير القرآن سكت، ومن أمثلة ما روى  
 عنه فى التفسير ملتزماً بالمنهج الذى أشرنا إليه فى تفسيره لقوله  
 تعالى فى سورة الشعراء ٨٨-٨٩ : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨)  
 إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ فقال : القلب السليم هو الصحيح وهو  
 قلب المؤمن، لأن قلب المنافق مريض. قال الله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ  
 مَرَضٌ ﴾ .

وما استمده من السنة تفسيره : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنْ

الصَّالِحِينَ ﴾ آل عمران ٣٩، فإنه فسر الحصور بالذى لا يغشى

(١) النور : ٢ (٢) النور : ٢٢

(٣) راجع تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٦٩ طبع دار الكتب.

(٤) راجع تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٠٢، وج ٦ ص ١١ طبع دار الشعب.

(٥) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٢٧

(٦) فقه الإمام سعيد ج ١ ص ١٢٠

النساء لورود حديث بهذا المعنى، وما استمده من القرآن والسنة معنى تفسيره لسورة البروج ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾. فقد فسر الشاهد بيوم الجمعة، أخذاً من حديث روى عن النبي ﷺ، وهو أفضل الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد وفسر «مشهود» بيوم القيامة أخذاً من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾<sup>(١)</sup>.

فقد استعان فى تفسير هذه الآية بما جاء فى القرآن والسنة معاً أما تفسيره للكلمات اللغوية فتفسيره لكلمة أواب فى قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾<sup>(٢)</sup>. فقال: الأواب: الذى يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

ويمكن أن نقول: إن سعيداً كان على رأس المدرسة التى تسمى التفسير بالمأثور، فقد مهد السبيل لهذا المنهج. بما أثر عنه، وحمل راية التفسير بالمأثور بعده ابن جرير الطبرى وابن كثير، والسيوطى.

السنة:

كان علم سعيد بالسنة فى القمة، فقد كان حريصاً على أن يلم بسنة رسول الله ﷺ والخلفاء والرواة من الأصحاب، حتى قال عن نفسه: «ما بقى أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله ﷺ، وكل قضاء قضاه أبو بكر، وكل قضاء قضاه عمر - قال راوى هذا عنه - وأحسبه قال وكل قضاء قضاه عثمان - منى»<sup>(٣)</sup>!

(١) هود ١٠٢ (٢) الإسراء: ٢٥

(٣) راجع تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٨٦

(١) راجع تنكرة الحفاظ ج ١ ص ٥٤ طبع حيدر آباد الهند.

ولا ننسى أن سعيدا يعتبر راوية أبي هريرة لأنه زوج ابنته، حتى قيل إن أصح الأسانيد الزهري عن سعيد عن أبي هريرة وقد تلقى الناس حديثه بالقبول والاطمئنان لما عرف به من الدين والصدق والأمانة والدقة، وكان علمه بالسنة محل القبول الكامل من علماء الحديث ونقاده حتى قال ابن المديني : لا أعلم في التابعين أوسع علما من سعيد بن المسيب، وإذا نال سعيد مضت السنة ، فحسبك به، وهو عندي أجل التابعين<sup>(٤)</sup>.

ولعلماء الحديث اصطلاحات وتقسيمات للأحاديث بحسب متونها ورواتها، ومن هذه التقسيمات أخبار الأحاد، والحديث المرسل، وخبر الأحاد هو الذي رواه فرد عن فرد واحد عن الصحابي حتى نهاية السند، ولم يكن في واحد من رواه مطعن، ويرى أكثر العلماء جواز الاحتجاج بخبر الأحاد في الفروع دون الأصول والحديث المرسل هو الذي رفعه التابعي إلى النبي ﷺ، وسقط منه الصحابي في رأى غالبية علماء الحديث ويوجد بين علماء الحديث من يرى أن الحديث المرسل هو ما سقط منه راو سواء كان صحابيا أو غيره.

وموقف ابن المسيب من الحديث المرسل أنه لا يرى الاحتجاج به، وعلى الرغم من رأيه هنا في الاحتجاج بالحديث المرسل فإن الإمام الشافعي يرى أن مرسل سعيد بن المسيب حسن. ويعلل العلماء رأى الشافعي هذا بأن ما عرف عن سعيد من الدقة والصدق وأنه لا يروى إلا عن ثقات، فمعنى هذا أنه إذا روى حديثا مرسلا فلا بد أنه تلقاه عن ثقة ولهذا قبله العلماء ويروى المروزي

(٤) راجع تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٥٤ طبع حيدرآباد الهند.

عن أصحاب الشافعي أن جميع مراسيل سعيد بن المسيب بحثت فوجدت مسندة، وهذا هو السبب في أن الشافعي اعتبرها حجة<sup>(١)</sup>.

### الفقيه :

كانت معارف سعيد الواسعة بالسنة وقضايا رسول الله ﷺ وقضايا الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة تمدد بالقدرة على إصدار الحكم فيما يعرض له من القضايا على ضوء ما عنده من العلم بسنة رسول الله ﷺ، وكان يمثل في المدينة مدرسة أهل الحديث التي تبلورت فيما بعد في مذهب مالك، وليس يعني ذلك أنه لم يستعمل الرأي مطلقاً، بل إنه كان لا يرى مجالاً للرأي ما دام هناك نص من قرآن أو سنة. أو حكم قضى به واحد من الصحابة السابقين. والحق أن ذلك لم يكن اتجاه سعيد وحده بل سمة عامة تشمل علماء الحجاز وكثيرين من علماء العراق من أمثال شريح والشعبي، غير أنه إذا عُرِضت قضية لم يتناولها النص، أو لم يسبق فيها حكم لأحد الصحابة، فإن سعيداً كان يعمل الرأي، ويحكم فيها بما يهديه إليه اجتهاده، وإن كان غيره من علماء المدينة يتوقفون إذا لم يجدوا نصاً.

وقد جرى حوار بين سعيد وبين ربيعة الرأي يتبين منه مذهب سعيد في تناول الأحكام، وهذا الحوار رواه مالك عن ربيعة بن عبد الرحمن قال : سألت سعيد بن المسيب : كم في إصبع المرأة ؟

فقال : عشر من الإبل.

قلت : كم في إصبعين ؟

(١) راجع اختلاف الحديث للشافعي هامش كتاب الأم ج ٧ ص ٢٣ - ٢٤ طبع الشعب وراجع فقه الإمام سعيد بن المسيب ج ١ ص ١٣٠ - ١٣٤.

قال : عشرون من الإبل.

قلت : كم فى ثلاث ؟

قال : ثلاثون.

فقلت : كم فى أربع ؟

قال : عشرون من الإبل.

فقلت : حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها

« ديتها » ؟

فقال سعيد : أعراقى أنت ؟

فقلت : بل عالم متثبت أو جاهل يتعلم

فقال سعيد : هى السنة يا ابن أخى.

وتعليق سعيد الأخير بقوله «هى السنة يا ابن أخى» يكشف عن

مذهبه فى أخذ الأحكام ، من أنه إذا كان هناك نص فلا مجال

للرأى.

وقد كان لسعيد إجابات عن قضايا فى الفقه تناولت كثيرا من

الجوانب فى العبادات والمعاملات والقضاء والحدود وسواها، وقد

جمعها باحث عراقي فى كتاب سماه.. فقه الإمام سعيد بن

المسيب، وعلق عليها وقارنها بآراء العلماء الآخرين فى نفس

القضايا<sup>(١)</sup> عارضا حجج كل فريق، ومذهب سعيد فى أخذ الأحكام

هو المذهب الذى جرى عليه فقهاء المدينة السبعة وسواهم.

**خاتمة المطاف :**

كانت حياة سعيد بن المسيب - رحمه الله - مليئة بالمتاعب

والمشاحنات، جرّت عليه الكثير من الآلام، فقد تعرض للسجن،

(١) راجع كتاب سيد التابعين ص ٩١ - ٩٢.

والجلد والمقاطعة، وتعرض للقتل، وقد ضعف بصره فى أخريات حياته، ولما عرض عليه أن يخرج إلى وادى العقيق ليتداوى اعتذر لأن خروجه سيحرمه من حضور الجماعة فى مسجد رسول الله ﷺ.

وقد عاش سعيد حياة طويلة امتدت حتى بلغ الثمانين، وقد ولد بعد عامين من خلافة عمر رضى الله عنه، وتوفى إلى رحمة الله فى عام ٩٤ هـ بعد أن قدم القدوة للعلماء وأهل الفتوى فى الاعتزاز بالحق، والتمسك بأهدافه حتى تسود المثل العليا، ويتحقق للمجتمعات ما ترنو إليه من عدل يبسط أجنحته على الجميع، وأمن يعيش الجميع فى ظلاله.

وكان أثره واضحاً فى الحياة الفكرية فى المدينة، واتجاه المدارس الفقهية التى عرفت منها مدرسة أهل الأثر بالحجاز فرحم الله سعيداً وأجزل ثوابه وأحسن مثواه.

عالم المدينة  
عروة بن الزبير  
(٥٩٤)





أبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ ، وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وخالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

اختلف المؤرخون فى تاريخ ولادته ، فقيل إنه ولد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ورجح ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية أنه ولد عام ٢٣ هـ .

وكان أبوه الزبير رضى الله عنه يرقصه وهو صغير ، ويقول له :

أبيض من آل عتيق مبارك من ولد الصديق  
ألذه كما ألدُّ ريقى<sup>(١)</sup>

كان من فقهاء المدينة السبعة أو العشرة الذين اتخذهم عمر ابن عبد العزيز مستشاريه فيما يعرض له من أمور ، وكان لا يصدر إلا عن رأيهم ، كان فقيها عالما حافظا ثبوتا حجة ، عالما بالسير ، ثقة ، كثير الحديث مأمونا ، وهو أول من ألف فى السير والمغازى ، وكان من أروى الناس للشعر ، أخذ عن عدد من الصحابة وسواهم ، ونظرا لصلته الخاصة بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فقد أخذ عنها كل علمها ، وكانت من أعلم الصحابة ، حتى روى أنه قيل : لقد رأيتنى قبل موت عائشة بأربع حجج أو خمس حجج ، وأنا أقول : لو ماتت اليوم ما ندمت على حديث عندها إلا وقد وعيته ، ولأجل هذه الصلة الوثيقة بعائشة واستفادته منها قال قبيصة بين نؤيب أحد فقهاء

(١) راجع البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٠ تحقيق الاستدريى .

المدينة : كان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة ، وكانت عائشة أعلم الناس<sup>(١)</sup> .

**الإشادة بعلم عروة :**

كان علم عروة الزاخر قد لفت انتباه كل من خالطه ، والتقى به ، وبخاصة من أبناء الأمويين والروائيين ، فقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : ما أعلم أحدا أعلم من عروة ، وما أعلمه يعلم شيئا أجهله ، وهذا عبد الملك بن مروان ، وقد كان يجمعه هو وعروة الجد في طلب العلم بالمدينة لما كان شابا ، فلما آلت إليه الخلافة ، قصده الناس من هنا ومن هناك ، وكان ابن شهاب الزهري في وفد من أهل المدينة قدموا عليه في دمشق ، وكان أحدثهم سنا ، ولفتت حدائث سن الزهري نظر عبد الملك ، فسأله : من أنت ؟

فلما انتسب إليه ، قال له : لقد كان أبوك وعمك نعاقين في فتنة ابن الزبير ، فقال الزهري : يا أمير المؤمنين ، إن مثلك إذا عفا لم يعد ، وإذا صفع لم يُكْرَبْ ، فأعجب عبد الملك منطلق الزهري على حدائث سنه ، فقال له : أين نشأت ؟ فأجاب الزهري: بالمدينة .

سال عبد الملك : عند من طلبت ( يعني العلم ) .  
فأجاب : سعيد بن المسيَّب ، وسليمان بن يسار ، وقبيصة ابن زؤيب ومع أنهم من جلة العلماء ، فإن عبد الملك وجه الزهري قائلا : فأين أنت من عروة بن الزبير ، فإنه بحر لا تكدره الدلاء .

(١) جاء هذا الخبر مرتين في العقد الفريد يذكر مرة فتنة ابن الأشعث ومرة فتنة ابن الزبير ، والصحيح أن المقصود ابن الزبير .

قال الزهري فلما انصرفت من عنده ، لم أبارح عروة بن الزبير حتى مات<sup>(١)</sup> وكأنا كان عبد الملك يتذكر أيام شبابه ، وهم لا زالوا بعد في مقتبل العمر ، وقد جلسوا أربعة أو خمسة حسب روايات كتب الأخبار ، عبد الملك ، وعبد الله بن الزبير ، ومصعب بن الزبير ، وعروة بن الزبير ، وتقول بعض الروايات إن عبد الله بن عمر كان معهم ، وقد اجتمعوا في المسجد الحرام ، وكان ذلك في عهد معاوية ، فقال بعضهم : هلم فلنتمنه ، فقال عبد الله بن الزبير منيتي أن أملك الحرمين ، وأنال الخلافة ، وقال مصعب : منيتي أن أملك العراقيين وأجمع بين عقيلتي قريش : سكينه بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، وقال عبد الملك : منيتي أن أملك الأرض كلها ، وأخلف معاوية ، فقال عروة : لست في شيء مما أنتم فيه ، منيتي الزهد في الدنيا ، والفوز بالجنة في الآخرة ، وأن أكون ممن يروى عنه هذا العلم<sup>(٢)</sup> .

وكأنا كانت أبواب السماء مفتحة فاستجابت لهذه الأمنيات في ساحة الحرم ، وكأنا ظل عبد الملك يتذكر ذلك المجلس ، كلما طاف به طائف من ذكريات الشباب ، وكان يرى كلا منهم إلا عروة كانت الدنيا تداعب أمنياته ، وتدغدغ أحلامه ، لكن عروة كان معلق القلب بالسماء ، فلم يتمن شيئا من عرض هذه الدنيا وبهجتها ، وإنما تمنى الزهد فيها ، والفوز بالجنة ، وأن تكون أيامه فيها وقفا على نشر العلم بين الناس ، وتفجير

(١) راجع العقد الفريد ج ٢ ص ١٩ ، ص ٩٢ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٩٩ - ١٠١ طبع بولاق ، وجاءت هذه القصة بروايات أخرى في الحلية ج ١ ص ١٧٦ ، فقد جعل تمنى المغفرة من قول ابن عمر ، وقصر تمنى عروة على نشر العلم .

ينابيه في قلوبهم ، ولذلك كان عبد الملك يقول : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير ، وليست هذه هي النصيحة الوحيدة التي وجهت إلى الزهري ليستفيد من علم عروة، بل هناك نصيحة أخرى جاءت من مصر كما جاءت الأولى من دمشق ، قال الزهري : قدمت مصر على عبد العزيز بن مروان ، وأنا أحدث عن سعيد بن المسيب ، فقال لي إبراهيم بن عبد الله بن قارظ: ما أسمعك تحدث إلا عن ابن المسيب ؟ فقلت : أجل ، فقال : لقد تركت رجلين من قومك ، لا أعلم أحدا أكثر حديثا منهما عروة بن الزبير ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

قال الزهري : فلما رجعت إلى المدينة ، وجدت عروة بحرا لا تكدره الدلاء<sup>(١)</sup> .

وقد أثر عن الزهري : بعد ذلك وهو أعلم التابعين ، قوله : كنت أطلب العلم من ثلاثة : سعيد بن المسيب ، وكان أفقه الناس ، وعروة بن الزبير ، وكان بحرا لا تكدره الدلاء ، وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة ، وكنت لا أشاء أن أقع منه على علم ما لأجد عند غيره إلا وقعت<sup>(٢)</sup> ، وكذلك قوله : « أدركت من بحور قريش أربعة : عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن ، وسعيد بن المسيب ، فأما سلمة بن عبد الرحمن فكان يمارى ابن عباس فجرب بذلك علما كثيرا »<sup>(٣)</sup> .

وكان أبو بكر بن عبد الرحمن يرى عروة بن الزبير ، وعمر ابن عبد العزيز من الذين اكتملت فيهم الصفات التي تؤهلهم

(١) راجع كتاب المعرفة والتاريخ ج ١ ص ٥٥١

(٢ ، ٣) المعرفة والتاريخ ج ١ ص ٥٥٢

للعلم ، فيقول : « إنما هذا العلم لواحد من ثلاثة ؛ لذي نسب يزين به نسبه ، أو لذي دين يزين به دينه ، أو مختلط بسُلطان ينتجعه به ، ولا أعلم أحدا أجمع لهذه الخلال من عروة بن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز ، كلاهما ذو حسب ، ودين ، ومن السلطان بمكان ،<sup>(١)</sup> .

وليس غريبا على عروة أن يبلغ هذه المنزلة من العلم ، فقد كان جدّه في تحصيل العلم لا يعرف الكل ، فقد روى عنه أنه كان يقول : لقد كان يبلغني عن الرجل من المهاجرين الحديث ، فأتيه ، فأجده قد قال : - استراح وقت القيلولة - فأجلس على بابه ، فأسأله عنه إذا خرج<sup>(٢)</sup> .

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة - وهو من أقرانه - يأخذ عنه الحديث ، ولا يخفى سروره بما يأخذ عنه ، فقد أتى ذات ليلة إلى عروة ، فجعل عروة يحدثه ، وجعل عبيد الله يضحك ، فظن عروة أنما ذلك من عبيد الله استهزاء ، فقال له : ما يضحكك ؟

فقال : إنك تحدثني عن عائشة ، وتحملني على الملأ ، وإن غيرك يحيلنا على المفاليس<sup>(٣)</sup> .

**اهتمامه بنشر العلم :**

كان عروة حريصا على بث العلم ونشره حتى إنه كان يستحث غيره على سؤاله والاستزادة من المعرفة مما عنده ، فقد روى أنه كان يتألف الناس على حديثه ، وكان يستحث

(١) طية الأولياء ج ٢ ص ١٨٧ (٢) تاريخ الإسلام للذهبي ج ٤ ص ٢٢

(٣) المعرفة والتاريخ ج ١ ص ٥٥٢

أولاده على سؤاله ، فيقول : يا بنى ، سلونى ، فلقد تركت حتى كدت أن أنسى ، وإنى لأسأل عن الحديث فيفتح حديث يومى<sup>(١)</sup> ، وكان يقول لأولاده : إنا كنا أصاغر قوم ، ثم نحن اليوم كبار ، وإنكم اليوم أصاغر ، وستكونون كبارا ، فتعلموا العلم تسودوا به ، ويحتاج إليكم ، فوالله ما سألتنى الناس حتى نسيت . وكانت له كتب فقه سجل فيها ما عنده من المعرفة والعلم ، ثم بدا له ، فمحاها اكتفاء بكتاب الله ، ثم لما تقدمت به السن تمنى أن هذه الكتب كانت قد بقيت ، وفى ذلك يروى عنه أبو الزناد قوله : « فوالله لو ددت أن كتبى عندى ، وأن كتاب الله قد استمرت ميريرته ( قوى واستحكم ) ، وهناك رواية عن ابنه هشام تقول : إن أباه كان حرق كتبا فيها فقه ، ثم قال : لو ددت أنى كنت فديتها بأهلى ومالى »<sup>(٢)</sup> .

ولهذه الثقة فيما عند عروة من علم كان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يأخذون عنه ، فقد روى عن عبد الرحمن بن عوف قال : لقد رأيت الأكابر من أصحاب النبي ﷺ وإنهم ليسألونه عن قصه ذكرها<sup>(٣)</sup> .

### مظاهره :

كان عروة حسن الهيئة ، أنيق المظهر ، وسيم الطلعة ، وكانت هذه سمة العلية من أبناء قريش ، ومن مظاهر هذه الوسامة أنه كان لا يحف شاربه ، وإنما يأخذ منه مأخذا حسنا ، وكذلك كان ابن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وكان شديد العناية بنظافته ، فكان يغتسل كل يوم ، ويلبس الثياب المعصفرة .

(١) الملبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ١٢٢

(٢) ، (٣) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٨٢

وقال ابنه هشام : إنه كان يعصفر له الملحقة بالدینار ، وكان آخر ثوب لبسه ثوب عصفر له بدینار ، وكان یلبس كساء خز ، ویلبس الطلیسان المززر بالديباج فيه ، وهو محرم ، ولا یزره علیه ، وكان یصلی فی قمیص وملحفة مشتملا بها علی القمیص، وكان یلبس فی الحر قباء سندس مبطنًا بحریر ، وكان یخضب قریبا من السواد<sup>(١)</sup> .

وهذه كلها مظاهر تدل علی أنه كان فی حال من النعمة والثراء.

#### علمه بالسير والمغازي :

كان عروة واسع المعرفة ، محیطا بالسير والمغازی ، حتی إنه أول من ألف فی هذا الفن ، إلا أن ما كتبه فی فن المغازی والسير لم یصل إلینا . ویبدو أنه من بین الكتب التي أحرقها ، ثم ندم علیها فیما بعد ، وكان قادة عصره یعرفون عنه إمامه بالسير والمغازی ، فكانوا یبعثون إلیه من وقت لآخر یسألونه عن أمر من الأمور التي تعرض لهم ، ویريدون أن یعرفوا وجه الحق فیها ، وكان عبد الملك بن مروان یكتب لعروة من وقت لآخر یتوضحه عن الأمر من السیرة ، وعلى الرغم من ضیاع كتب المغازی بین ما ضاع أو أحرق من كتبه ، فإن قراءة كتب التاريخ بإمعان یمكن للباحث من خلال الإمعان فیها أن یتخلص رواية كاملة للسير والمغازی جاءت عن طریق عروة ، ولعل الله یهبنا القوة ، ویفصح لنا فی الأجل حتی نحقق هذا ، ونخرج السیرة للناس من رواية عروة بن الزبیر ، وهذه نماذج من السیرة اجاب بها عروة عبد الملك بن مروان لما بعث یسأله عنها :

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ١٢٤ ، ١٢٥

من ذلك أن عبد الملك لما بعث إليه يسأله عن أول أمر الإسلام كتب إليه : « أما بعد ، فإنه - يعنى النبي ﷺ - لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذى أنزله عليه ، لم يبعثوا منه أول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال لهم ، وأغروا به من أطاعهم ، فانصق<sup>(١)</sup> عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظه الله منهم ، وهم قليل ، فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث ، ثم اتتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من آبائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام ، فافتتن من افتتن ، وعصم الله منهم من شاء ، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة - وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى ، لا يظلم أحد بأرضه ، وكان يُئنى عليه مع ذلك صلاح ، وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغا ورفاهية من الرزق ، وأما ومتجرا حسنا ، فأمرهم بها رسول الله ﷺ ، فذهب إليها عامتهم لما قهرها بمكة ، وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشددون على من أسلم منهم ، ثم إنه فشا الإسلام فيها ، ودخل فيه رجال من أشرافهم »<sup>(٢)</sup> .

وفيما يلى نموذج ثان ردا على كتاب عبد الملك إلى عروة يسأله عن وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها قال : « إنك كتبت إلى فى خديجة بنت خويلد تسألنى متى توفيت ؟ وإنها توفيت

(١) انصق : انصرف . (٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .



قبل مخرج رسول الله ﷺ من مكة بثلاث سنين أو قريبا من ذلك ، ونكح عائشة متوفى خديجة ، كان رسول الله ﷺ رأى عائشة مرتين ، يقال له هذه امرأتك ، وعائشة يومئذ ابنة ست سنين ، ثم إن رسول الله ﷺ بنى بعائشة بعدما قدم المدينة ، وهى يوم بنى بها ابنة تسع سنين « (١) .

أما النموذج الثالث فإنه كان أيضا ردا على تساؤل عبد الملك لما كتب إلى عروة يسأله عن أمر خالد بن الوليد يوم الفتح فأجابه قائلا: « أما بعد فإنك كتبت إلى تسألنى عن خالد بن الوليد ؛ هل أغار يوم الفتح ؟ وبأمر من أغار ؟ وإنه كان من شأن خالد يوم الفتح أنه كان مع النبى ﷺ ، فلما ركب النبى بطن مرَّ عامدا إلى مكة ، وقد كانت قريش بعثوا أبا سفيان وحكيم بن حزام يتلقيان رسول الله ﷺ ، وهم حين بعثوهما لا يدرون أين يتوجه النبى ﷺ ، إليهم أو إلى الطائف ؟ وذلك أيام الفتح ، واستتبع أبا سفيان ، وحكيم بن حزام بديل بن ورقاء ، وأحب أن يصحبهما ولم يكن غير أبي سفيان وحكيم بن حزام وبديل ، وقالوا لهم حين بعثوهم إلى رسول الله ﷺ : لا نؤتين من ورائكم ، فإننا لا ندرى من يريد محمد ؛ إيانا يريد ، أو هوازن يريد ، أو ثقيفا ؟

وكان بين النبى ﷺ وبين قريش صلح الحديبية ، وعهد ومدة، فكانت بنو بكر فى ذلك الصلح مع قريش ، فاقتتل طائفة من بنى كعب وطائفة من بنى بكر ، وكان بين رسول الله ﷺ وبين قريش فى ذلك الصلح الذى اصطلحوا عليه : « لا إغلال ولا إسلال » (٢) فأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، فاتهمت

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) الإسلال الرشوة ، والإغلال الخديعة .

بنو كعب قريشا ، فمنها غزا رسول الله ﷺ أهل مكة ، وفي غزوته تلك لقي أبا سفيان وحكيما وبديلا بمر الظهران ، فبايعوه ، فلما بايعوه بعثهم بين يديه إلى قريش يدعوهم إلى الإسلام ، فأخبرت أنه قال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وهي بأعلى مكة ، ومن دخل دار حكيم - وهي بأسفل مكة - فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه وكف يده فهو آمن .

وإنه لما خرج أبو سفيان وحكيم من عند النبي ﷺ عامدين إلى مكة بعث في إثرهما الزبير وأعطاه رايته ، وأمره على خيل المهاجرين والأنصار ، وأمره أن يغرز رايته بأعلى مكة بالحجون ، وقال للزبير : لا تبرح حيث أمرتك أن تغرز رايتي حتى آتيك ، ومن ثم دخل رسول الله ﷺ .

وأمر خالد بن الوليد فيمن كان أسلم من قضاة وبنى سليم ، وأناس إنما أسلموا قبيل ذلك أن يدخلوا من أسفل مكة ، وبها بنو بكر قد استنفرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة ، فدخل عليهم خالد بن الوليد من أسفل مكة وحُدثت أن النبي ﷺ قال لخالد والزبير حين بعثهما : لا تقاتلا إلا من قاتلكما ، فلما قدم خالد على بنى بكر والأحابيش بأسفل مكة ، قاتلهم فهزمهم الله عز وجل ، ولم يكن بمكة قتال غير ذلك ، غير أن كرز بن جابر أحد بنى محارب بن فهر ، وابن الأشعر - رجلا من بنى كعب - كانا في خيل الزبير ، فسلكا كداء فقتلا ، ولم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير قتال ، ومن ثم قدم النبي ﷺ ، وقام الناس إليه يبأيعونه ، فأسلم أهل مكة ، وأقام النبي ﷺ عندهم نصف شهر ، لم يزد على ذلك ، حتى جاءت هوازن وثقيف فنزلوا بحنين<sup>(١)</sup> .

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٥ ، ٥٦

**عبادته :**

كان عروة رجلا صالحا ، قد وسع عليه فى الرزق والجاه إلا أن ذلك لم يصرفه عما يليق بأهل التقوى والصلاح من الإقبال على العبادة والنسك تقربا إلى الله تعالى ، واستزادة من فضله ، وكانت هذه سجية فيه منذ الحداثة ، فقد مر بنا لما اجتمع مع نظرائه ، وأخذ كل منهم يتمنى لنفسه ، فكانت أمنيته نشر العلم فى الدنيا والفوز بالمغفرة فى الآخرة ، ورجل يفكر بهذه الطريقة لا بد أن يكون عامر الصلة بالله ، موصول القلب بربه ، مراقبا له فى كل أمره .

وقد روى ابنه هشام أنه كان يسرد الصوم ، وكان يصوم الدهر كله إلا يومى الفطر والنحر ، وأنه مات وهو صائم ، حتى فى السفر كان يكون معه الرفقة فيصومون ويقطرون عملا بالرخصة ، فلا يأمرهم بالصيام ، ولا يفطر هو بل يستمر على صيامه عملا بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾<sup>(١)</sup> ، وكان دائم التلاوة لكتاب الله تعالى والعكوف عليه ، فكان يقرأ ربيع القرآن كل يوم نظرا فى المصحف ، فإذا جاء الليل ، قام الليل تاليا للقرآن وقد حدثوا أنه لم يخلف هذه العادة مطلقا إلا ليلة قطعت رجله ، ثم استأنف التلاوة فى اليوم التالى كعادته التى جرى عليها طوال حياته<sup>(٢)</sup> .

**صفاته وأخلاقه :**

كان عروة رجلا يحب معالى الأمور ، ويأخذ نفسه بها ، ويربى عليها أبناءه ، وقد مرّ بنا وصيته لأولاده فى طلب العلم ، وكان يقول : « إنى لأعشق الشرف كما أعشق الجمال »<sup>(٣)</sup> ، وكان

(١) البقرة ١٨٤

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٩٩ طبع بولاق ، وجـ ٢ ص ٢٥٥ تحقيق د. إحسان عباس طبع دار صادر .

(٣) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٧٨ .

يقول لأولاده : « يا بنى لا يهديّن أحدكم إلى ربه عز وجل ما يستحى أن يهديه إلى كريمه ، فإن الله عز وجل أكرم الكرماء ، وأحق من اختير إليه » ، ويقول لهم : « يا بنى تعلموا ، فإنكم إن تكونوا صغراء قوم عسى أن تكونوا كبراءهم ، واسوأته ، ماذا أقبح من شيخ جاهل . »

وكان يرى أن تصرفات الشخص تعبير حقيقى عن طبيعته الكامنة ، وسلوكه ، وأن الإنسان الذى يبدر منه العمل الطيب يدل ذلك على طبيعة خيرة فى حناياه ، تدعوه إلى أن يفعل مثلها ، وأن الذى يفعل السوء يومئ فعله إلى ما تنطوى عليه نفسه من رغبة فى عمل الشر ؛ حتى ولو ظن الناس به غير ذلك ؛ ولذلك كان من نصيحته لأولاده قوله : « إذا رأيتم خلة شر رائحة من رجل فاحذروه ، وإن كان عند الناس رجل صدق ، فإن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم خلة خير رائحة من رجل فلا تقطعوا عنه إياسكم ، وإن كان عند الناس رجل سوء ، فإن لها عنده أخوات . »

وقد كرر هذا المعنى فى صورة أخرى حيث قال : « إذا رأيت الرجل يعمل الحسنة فاعلم أن لها عنده أخوات ؛ فإن الحسنة تدل على أخواتها ، وإن السيئة تدل على أخواتها<sup>(١)</sup> . »

وكان عروة رجلا شديد الحياء ، يخشى أن يخرج أصدقائه ، وأقاربه ؛ حتى ولو أدى ذلك إلى تنازله عن حقوق خاصة به ، وفى مسلكه مع طلحة بن عبيد الله أوضح دليل على ذلك ، فقد كان طلحة بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر يمتُّ إليه بصلة القرابة من جهة أمه ، وكانت أم طلحة عائشة بنت طلحة ،

(١) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٧٧ ، وتهذيب التهذيب جـ ٧ ص ١٨٣ .

وكانت قد تزوجت مصعب بن الزبير ، وكان عروة قد أودع عند طلحة مالا من مال بنى مصعب بن الزبير لما خرج إلى الشام ، وبلغ عروة أن طلحة يبني ويبتاع الرقيق والإبل والغنم ، وربما صاحب ذلك إشاعة تقول : إن طلحة قد بدد المال الذي أودعه عنده عروة ، فلما قدم عروة ، وسمع ما يتناقله الناس كره أن يكشفه ، وأن يسأله عن المال ، فسكت عنه ، وجعل يلقاه ، ويستحي أن يتحدث معه فيه ، فلما طال به العهد ، ولم يسأل طلحة عن الأموال ، قال له طلحة : ألا تريد مالك ؟ قال : بلى ، وكأنما كان ينتظر من طلحة ذلك ، ليكفي نفسه مؤونة الحرج .

قال له طلحة : فأرسل فحذه ، سأله عروة : متى ؟

فأجاب : متى شئت ، فبعث معه عروة رسولا ؛ فإذا هو قد هدم عليه بيتا ، واستخرج المال ، وأتى به إلى عروة .

وسرَّ عروة أن يرى طلحة قد حفظ الأمانة ، وكذب إشاعات الناس ، وأدرك أن ذلك لدينه المتين، وحسبه العالى، فتمثل قائلا:

فما استخبأت فى رجل خبيثا

كمثل الدين أو حسب عتيق

ذو الأحساب أكرم مآثرات

وأصبر عند نائبة الحقوق<sup>(١)</sup>

**سَخَاؤُهُ :**

كان عروة رجلا سخيا ، يرى أن الله قد أفاء عليه العلم والشرف والجاه والمال ، فكان يحب أن يشركه الناس فيما أفاء الله عليه ، وقد رأينا رغبته فى نشر العلم ، أما سخاؤه بالمال فكان يحب أن يجعله للعامّة من الناس ، وكان له حائط (حديقة)

(١) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٧٦ ، ١٧٧

بها نخل ، فإذا حان وقت جناها ، وجاء ميعاد الرطب ثلم في جدارها ثلماً ؛ ليعبر الناس منه فيأخذوا ما يشتهون من رطبها ، يأكلون ويحملون ، وكان ينزل حوله ناس من البدو يدخلون فيأكلون ويحملون أيضاً ، ويظل الجدار مثلوما كذلك طيلة مدة الرطب ، فإذا مضى أوانه أصلح الجدار ورممه ، وكان كلما دخل حديثه تلك ردد قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (١) .

وقد عبر عن مسلكه هذا في الحياة خير تعبير بما أثر عنه من قوله : « مكتوب في الحكمة : لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطا ، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء » .  
وقد كان عروة بكلمته هذه يعبر أصدق تعبير عن الآداب والأخلاق التي أوصى بها الإسلام في كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٣) وقوله ﷺ : « إذا لم تسعوا الناس بأموالكم فسعومم بأخلاقكم » (٤) .

**صبره وتحمله :**

لولا أن كتب التاريخ والأخبار أجمعت على ما روى عن صبر عروة وتحمله لما وقعت الأكلة في رجله ، واحتجج إلى قطعها لما

(١) الكهف ٣٩ (٢) الحج ٢٤ (٣) آل عمران ١٥٩

(٤) جاء الحديث بصيغة قريبة من هذه وهي إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعومم ببسط الوجه وحسن الخلق ، وقد استشهد بها الغزالي في الإحياء ج ٨ ص ١٤٢٩ طبعة الشعب وقال العراقي : رواه البزار وأبو يعلى والطبراني .

استطاع المرء أن يصدق ما روى ، ولقد كانت قصة عجبا حقا تقول : إن عروة فى إحدى سفراته إلى دمشق ، بعد أن دان الأمر لبنى أمية ، وزال ملك أخيه عبد الله بمكة ، أصابت الأكلة رجله فى الطريق ، وأخذت الإصابة تزداد يوما بعد يوم حتى وصل إلى دمشق ، وعرف بالأمر الوليد بن عبد الملك ، فاستدعى له الأطباء ، فأجمع رأيهم على قطعها خوفا من سريان الداء فى الساق كلها ، ثم الجسد بأكمله ، وأخذ الوليد يقنعه بقطعها حماية لبقية جسمه من التلف ، فلما استجاب لرأى الأطباء ، وأخذوا يعدون العدة لنشرها ، عرضوا عليه أن يسقوه مخدرا لئلا يحس بألم القطع فرفض ذلك قائلًا : ما ظننت أن أحدا يؤمن بالله يشرب شيئًا يغيب عقله ، حتى لا يعرف ربه عز وجل ، ولكن إذا كنتم ولا بد فاعلين ، فافعلوا ذلك ، وأنا فى الصلاة ، فإنى لا أحس بذلك ولا أشعر به ، فنشروا رجله من فوق الأكلة من المكان الحى احتياطا أنه لا يبقى منها شيء ، وهو قائم يصلى ، وكان صائما ، فما تضرر ولا اختلج ، وهناك رواية تقول : إنهم قالوا نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألما ، فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافيته ، قالوا : فنسقيك المرقد ، قال : ما أحب أن أسلب عضوا من أعضائى ، وأنا لا أجد ألم ذلك ، فأحتسبه ، ودخل عليه قوم فأنكرهم ، فسأل : من هؤلاء ؟ قالوا : يمسونك ، فإن الألم ربما عزب معه الصبر .

قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى ، فقطعت وهو يهلهل ويكبر ، ثم أغلى الزيت فى مغارف الحديد ، فحسم به الجرح مكان القطع حتى لا ينزف ، فغشى عليه من شدة الألم ، ثم أفاق والعرق يتصبب على وجهه .

ولما رأى القدم بأيديهم ، دعا بها ، فقلبها فى يده ، ثم قال :  
 أما الذى حملنى عليك ، إنه ليعلم أنى مامشيت بك إلى حرام ،  
 وكأنما كان هذا السفر يحمل له كثيرا من الآلام والأحزان ، ففى  
 نفس الليلة التى قطعت فيها رجله كان له ابن اسمه محمد قد  
 صحبه معه فى سفره ، وكان فيما يقال أحب بنيه إليه ، فدخل  
 دار الدواب فرفسته فرس فمات ، فدخلوا عليه يعزونه فيما  
 أصابه ، وكان الوليد بن عبد الملك أول المعزين له ، فكان جوابه  
 تسليما مطلقا لأمر الله ، ورضى بقضائه وقدره ، وكان مما قال  
 تلك الكلمات التى أثرت عنه ، وهى : « اللهم لك الحمد ، كانوا  
 سبعة فأخذت واحدا وأبقيت ستة ، وكان لى أطراف أربعة ،  
 فأخذت واحدا ، وأبقيت ثلاثة ، فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطى ،  
 ولئن كنت قد ابتليت فقد عافيت » .

ولما قضى حاجته من دمشق رجع إلى المدينة ، ولم يجز  
 على لسانه شكوى ، أو ألم مما حلّ به فى نفسه وفى ولده فى  
 ذلك السفر ، حتى وصل إلى وادى القرى فى طريق عودته إلى  
 المدينة ، وهو المكان الذى ظهر فيه الداء فى رجله سمع يقول :  
 ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصِيبًا ﴾ (١) .

ولما وصل إلى المدينة أتاه أهلها يسلمون عليه ويعزونه فى  
 رجله وولده ، وكان مما عزاه به عيسى بن طلحة بن عبيد الله  
 قوله : « والله ما كنا نعدك للصراع ، ولقد أبقى الله لنا أكثرك ،  
 أبقى لنا سمعك ، وبصرك ، ولسانك وعقلك ويديك وإحدى  
 رجليك » .



فقال له عروة : « والله يا عيسى ، ماعزاني أحد بمثل ما عزيتنى به<sup>(١)</sup> وقد جاءت هذه التعزية فى صيغة أخرى فى الطبعة التى حققها إحسان عباس هى : « والله ما بك حاجة إلى المشى ، ولا أرب فى السعى ، وقد تقدمك عضو من أعضائك ، وابن من أبناك إلى الجنة ، والكل تبع للبعض ، إن شاء الله تعالى ، وقد أبقي الله لنا منك ما كنا إليه فقراء ، وعنه غير أغنياء ، من علمك ورأيك . نفـعك الله وإيانابه ، والله ولى ثوابك والضمين بحسابك » .

وترامى إلى مسمع عروة أن بعض الناس يقول : إنما أصابه هذا بذنب عظيم أحدثه فلما سمع ذلك أنشد قول معن بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة

ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها

ولا دلنى رأبى عليها ولا عقلى

ولست بماش ما حبيت لمنكر

من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلى

ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة

وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة

من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى

ويبدو أن نزول هذه الأحداث بعروة وهو فى دمشق فى ضيافة الوليد قد أثر فى نفس الوليد ، وتأثر أيما أثر على ما نزل بصديق أبيه ، وكان عروة لما أصيبت رجله شيخا فى

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٠ (٢) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٥٦

سن الخامسة والستين ، ويقال إنه عاش بعد ذلك ثمانى سنوات ، وحدث أن قدم فى نفس السنة التى أصيب فيها عروة وابنه قوم من بنى عيس وفدا على الوليد ، وكان فيهم رجل ضرير ، فسأله الوليد عن عينيه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، بت ليلة فى بطن واد ، ولا أعلم عيسيا يزيد ماله على مالى ، فطرقنا سيل ، فذهب بما كان لى من أهل وولد ومال غير بغير وصبى مولود ، وكان البعير صعبا ، فندد ، فوضعت الصبى ، واتبعت البعير ، فلم أجاوز إلا قليلا حتى سمعت صيحة ابنى ، ورأسه فى فم الذئب ، وهو يأكله ، فلحقت البعير لأحبسه ، فنفحنى برجله على وجهى ، فحطمه وذهب بعينى ، فأصبحت لا مال لى ، ولا أهل ، ولا ولد ، ولا بصر .

فقال الوليد لما سمع قصته : « انطلقوا به إلى عروة ليعلم أن فى الناس من هو أعظم منه بلاء »<sup>(١)</sup> .

وكان من عادة عروة أن يجلس كل ليلة بعد صلاة العشاء الآخرة ، هو وعلى زين العابدين فى آخر المسجد يتحدثان ، وجرى بينهما الحديث ذات ليلة عما يقع من بنى أمية من الجور ، والمقام معهم ، وهما لا يستطيعان تغيير ذلك ، ثم ذكرا ما يخافان من عقوبة الله لهما لسكوتهما على هذا الجور ، فقال عروة لعلى : يا على ، إن من اعتزل أهل الجور ، والله يعلم منه سخطه لأعمالهم ، فإن كان منهم على ميل ، ثم أصابتهم عقوبة الله رجى له أن يسلم مما أصابهم<sup>(٢)</sup> .

(١) وفيات الاعيان تحقيق إحسان عباس - ٣ ص ٢٥٦

(٢) طبقات ابن سعد ج - ٥ ص ١٣٥

وقد سكن عروة بالعقيق وبنى قصرا هناك ، فعوتب في ذلك  
وقيل له أتهدج مسجد رسول الله ﷺ ، فقال : «إني رأيت  
مساجدهم لاهية وأسواقهم لاغية والفاحشة في فجاجهم عالية ،  
فكان فيما هناك عما هم فيه عافية » ووضح من قوله ، أنه يريد  
أن يعتزل الناس .  
روايته للشعر :

بعث معاوية إلى عروة مقدمه المدينة فاستنشدته الشعر ثم  
قال له أتروى قول جدتك صفية بنت عبد المطلب :  
خالجت آباد الدهور عليهم  
وأسماء لم تشعر بذلك أيام  
فلو كان زبير مشركا لعذرتة  
ولكنه - قد يزعم الناس - مسلم  
قال نعم وأروى قولها :  
ألا أبلغ بنى عمى رسولا  
ففيم الكيد فينا والإمار  
وسائل في جموع بنى علي  
إذا كثر التناشد والفخار  
بأننا لا نقر الضيم فينا  
ونحن لمن توسمنا نضار  
متى نقرع بمرورتكم نسؤكم  
وتظعن من أماتكم ديار  
ويظعن أهل مكة وهي سكن  
هم الأخيار إن ذكر الخيار  
مجازيل العطاء إذا وهبنا  
وأيسار إذا حُب القطار

ونحن الغافرون إذا قدرنا  
 وفينا عند عدوتنا انتصار  
 وانا والسوايح يوم جمع  
 بأيديها وقد سطع الغبار<sup>(١)</sup>  
 وإنما قالت ذلك في قتل أبي أزيهر تعير أبا سفيان بن حرب،  
 وكان صهره قتله هشام بن الوليد ، قال معاوية حسبك يا ابن  
 أخي هذه بتلك وقد روى لعروة بعض أبيات من الشعر ومما  
 قاله لما بنى قصر العقيق :

بنيناه فأحسنا بنياه  
 بحمد الله في خير العقيق  
 تراهم ينظرون إليه شـزرا  
 يلوح لهم على وضح الطريق  
 فساء الكاشحين وكان غيظا  
 لأعدائي وسُـرَّ به صديقي  
 يراه كل مـخـتلف وسار  
 ومعتـمـر إلى البيت العتيق<sup>(٢)</sup>  
 ويئر عروة مشهورة بالعقيق طيبة الماء، وفيها يقول أحد الشعراء:  
 لو يعلم الشيخ عُـدُوِي بالسحر  
 قصدا إلى البئر التي كان خصر  
 في فتية مثل الدنانير عُـرَّر  
 وقاهم الله النفاق والضجر  
 بين أبي بكر وزيد وعمـمـر  
 ثم الحواري لهم جـدُّ أغـمـر

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩

قد شمخ المجد هناك وازمخر  
فهم عليها بالعشى والبكر  
يسقون من جء ولا يؤذى بشر  
لزاد فى الشكر وإن كان شكر<sup>(١)</sup>

### عروة وخالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد :

كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والى حمص ، منذ أيام عثمان ، وكان قد عظم شأنه بالشام ، ومال إليها أهلها ، لما كان عندهم من آثار أبيه خالد ، ولبأسه وما أوقعه بالروم ، وما أظهره من شجاعة وجلد ، فأحبه الناس ، وخشى معاوية على نفسه منه ، وساورته الهواجس فى شأنه ، وأصبح يستشعر الخطر على سلطانه من أن يرى رجلا مثل عبد الرحمن ، وقد تعلقت به القلوب بهذه الصورة ، فطلب من ابن أثال أن يعمل الحيلة فى قتله والتخلص منه ، وضمن له فى نظير ذلك أن يضع عنه خراجه ما عاش ، وأن يوليه جباية خراج حمص .

وبيت ابن أثال الأمر فى نفسه ، وأخذ يتحين الفرص المواتية ليحقق لمعاوية ما أراد ، وكان ابن أثال رجلا نصرانيا ، وقد واثته الفرصة حينما عاد عبد الرحمن من إحدى غزواته المظفرة ببلاد الروم ، وكان المفروض أن تنصب له حفلات التكريم والإجلال لخدماته التى أداها للدولة ، ولكن الخوف على السلطان أفسد كل الأمور ، وجعل النجاح سببا للخوف ، ومبررا للموت بدلا من الحياة ، ودس ابن أثال شربة مسمومة إلى عبد الرحمن مع بعض مماليكه ، فشربها ، ومات بحمص ، ووفى معاوية لابن أثال بما ضمنه له ، فوضع عنه خراجه وولاه خراج حمص .

(١) سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

ولم يعد ما حدث سرا ، فقد تحدث به الناس ، وتناقلته  
 الأخبار، فمى جنبات الدولة المختلفة ، وأصبح حديث المجالس ،  
 وحدث أن جلس خالد بن عبد الرحمن إلى عروة بن الزبير ،  
 ويبدو أنه لم يعرفه ، فسلم عليه ، فسأله : من أنت ؟  
 فأجاب : أنا خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .  
 فقال عروة : ما فعل ابن أثال ؟

وكانما أحس خالد أن عروة يعرض به ، وبعدم انتصاره لدم  
 أبيه ، فقام من عنده ، وخرج من فوره متوجها إلى حمص ،  
 وهناك أخذ يترصد لابن أثال لتمكنه منه الفرصة ، حتى رآه  
 يوما راكبا ، فاعترضه خالد ، فضربه بسيفه فقتله ، ولما رجع  
 الأمر إلى معاوية حبسه أياما ثم أغرمه دية ابن أثال ، ورجع  
 خالد إلى المدينة بعدما أخذ بثأر أبيه ، ثم أتى عروة ، فسلم  
 عليه ، فقال له عروة : ما فعل ابن أثال ؟

فأجاب عبد الرحمن : قد كفيك ابن أثال ، ولكن ما فعل ابن  
 جرموز ؟ فسكت عروة ولم يجب ، وكانما يعرض بأولاد الزبير  
 أن لم يأخذوا بثأر أبيهم ، حينما قتله ابن جرموز .  
 وكان خالد حين قتل ابن أثال لم يتوار ، وإنما أنشد :

أنا ابن سيف الله فاعرفوني  
 لم يبيق إلا حسبي وديني  
 وصارم صلّ به يميني<sup>(١)</sup>

روى صاحب نسب قریش قال : لما قتل الزبير يوم الجمل  
 كان موقف بنيه فى غاية من الحرج والضيق ، فلم يدعمهم الناس  
 وفقد أبيهم ، بل أخذوا يلقونهم بما يكرهون ، وقد ضايق ذلك

(١) راجع تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

أشد الضيق بنى الزبير ، وفى ذلك يقول عمروة : لما قتل الزبير يوم الجمل جعل الناس يلقوننا بما نكره ، ونسمع منهم الأذى ، فقلت لأخى المنذر : انطلق بنا إلى حكيم بن حزام حتى نسأله عن مثالب قريش ، فنلقى من يشتمنا بما نعرف .

فانطلقنا حتى دخلنا عليه داره ، فذكرنا ذلك له ، فقال لغلام له : أغلق باب الدار ، ثم قام إلى سوط راحلته ، فجعل يضربنا ونلوذ منه ، حتى قضى بعض ما يريد . ثم قال : أعندى تلتمسان معايب قريش ، ايتدعا فى قومكما يكف عنكما ما تكرهان.

يقول عمروة : فانتفعنا بأدبه<sup>(١)</sup> .

#### فى غمرة الأحداث :

نشأ عمروة كما نرى من سير أحداث حياته فى المدينة المنورة، وأخذ عن أصحاب رسول الله ﷺ ، وبخاصة خالته عائشة رضى الله عنها ، وكان مثله مثل العلية من أبناء قريش ، وقد مر بنا حديثه مع عبد الملك وأخويه عبد الله ومصعب ابنى الزبير لما جلسوا يتمنون ، ولما وقعت أحداث فتنة ذى النورين عثمان رضى الله عنه كانت الأمور تمضى به وبأمثاله ممن هم فى سنه هيئة سهلة حتى قتل عثمان ، وولى على الخلافة ، وثارَت الفتنة وكان لعائشة دور كبير فى المطالبة بدم عثمان ، وكان الزبير على رأس المعارضين لعلى هو وطلحة بحجة الأخذ بالثأر من قتلة عثمان ، وفى موقعة الجمل رد عمروة لصفر سنة، وهناك رواية تقول : إن عبد الله أخاه هو الذى طلب إلى أبيه أن يعيده ، لما رآه أعاد إخوة له ليسوا أشقاء ، ولكن الذى تواترت

(١) ج. هرة نسب قريش من ٣٦٢ ايتدعا يعنى اسكتنا واستقرا .

عليه كتب السير فيما عدا البلاذرى في أنساب الأشراف أن عروة وأبا بكر بن عبد الرحمن ممن رُداً يوم الجمل لصغر سنهما ، إذ كان كل منهما فى سن الثالثة عشرة ، وهذا هو أول حدث يوشك أن يدخل عروة فيما كان يدور من الصراع بين المسلمين فى ذلك الوقت ، ولكنه نجا منه بفضل صغر سنه .

ولما صفا الأمر لبنى أمية بعد عام الجماعة هدأت الأمور أيام معاوية ، وانصرف كل إلى شأنه ، وكان ذلك حقاً بسبب ما أبداه الحسن رضى الله عنه من إثارة مصلحة الأمة ، وتجنبيها الفرقة ، والحرص على حقن دماء المسلمين ، إلا أن الصراع الذى هدا ، والوحدة التى عاش الناس فى ظلها بدأ بنيانها يهتز ، وقواعدها تنقض حينما أقدم معاوية على البيعة لابنه يزيد من بعده ، فأخذت سحب الفرقة تغيم سماء المسلمين، وبدأت النزعات الكامنة تظهر، وجرت الأحداث دامية محزنة انتهت بمقتل الحسين رضى الله عنه فى العراق ، بعدما آل الأمر إلى يزيد ، ودعا ابن الزبير إلى نفسه فى مكة ، وانتشر سلطانه مدة على العراق ومصر ، وبدأ على الساحة السياسية ثلاث جماعات تتصارع مما مزق وحدة المسلمين كل ممزق : الزبيريون فى الحجاز ، والأمويون فى الشام ، والمغامرون الذين تستروا تحت راية الأخذ بثأر الحسين رضى الله عنه فى العراق بزعامة المختار بن أبى عبيد الثقفى ، يضاف إلى هؤلاء جميعا الخوارج الذين لا يرضون عن واحدة من هذه الجماعات ، ويرون حربهم جميعا وخروجهم عن الإسلام ، وبدأت هذه الجماعات المتحاربة تأكل بعضها واحدة تلو الأخرى ، وانفرط عقد المسلمين ، وسالت الدماء بينهم حتى لم يعد هناك من قوى



تواجه بعضها إلا الزبيريين فى الحجاز والعراق بعد مقتل المختار ، والأمويين أو بنى مروان من بعدهم فى الشام ، ولم يلبث بنو مروان أن انتزعوا العراق من الزبيريين ، وقتل مصعب ابن الزبير ، وتحصن أخوه عبد الله بمكة ، فى هذا الجو المضطرب عاش عروة ، ولم يكن يستطيع أن يكون بمنأى عنه ، حتى لو أراد ؛ لأن أخاه عبد الله كان يدعو لنفسه ، وكان عروة معه بمكة لما اشتد به الحصار ، وأخذ عدد ممن حوله يزنيون له أن يستسلم ؛ ولكنه أبى ، وقد جرى هذا الحديث مرة وعروة حاضر ، وكان عروة يرى أن يتنازل أخوه حقنا للدماء ، ويرى فيما فعل الحسن مع معاوية قدوة له ، وقد أورد صاحب العقد وصفا لهذا المجلس الأخير لابن الزبير ، وما جرى فيه من حوار فقال لما كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها ابن الزبير ، جمع من كان معه من القرشيين ، فقال : ما ترون ؟

فقال رجل من بنى مخزوم من آل بنى ربيعة : والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقبلا ، ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت ، وإنما هى إحدى خصلتين ، إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا وإما أن تأذن لنا فنخرج .

فقال ابن الزبير : لقد كنت عاهدت الله أن لا يبايعنى أحد فأقبله بيعته إلا ابن صفوان . فقال له ابن صفوان : أما أنا فإنى أقاتل معك حتى أموت بموتك ، وإنها لتأخذنى الحفيظة أن أسلمك فى مثل هذه الحالة .

قال له رجل آخر : أكتب إلى عبد الملك بن مروان . فقال له : كيف أكتب : من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك بن مروان ، فوالله لا يقبل هذا أبدا ، أم أكتب :

لعبدالملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير فوالله  
لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلى من ذلك .

فقال عروة بن الزبير وهو جالس معه على السرير - :

يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة . قال : من هو ؟

قال : حسن بن عليّ خلع نفسه ، وباع معاوية .

فرفع ابن الزبير رجله فضرب بها عروة حتى ألقاه عن  
السرير، وقال : يا عروة ، قلبى إذا مثل قلبك ، والله لو قبلت  
ما يقولون ما عشت إلا قليلا ، وقد أخذت الدنيا ، وإن ضربة  
سيف فى عز خير من لكمة فى ذل»<sup>(١)</sup> .

ويبدو أن عروة كان قد شارك فى القتال ، فقد روى له

البلاذرى بيتا من الشعر أنشده وهو يقاتل :

أبى الحواريون إلا مجدا من يقتل اليوم يلاق رشدا

**الرحلة إلى عبد الملك :**

لم يكد الحجاج يدخل مكة بعد مقتل عبد الله بن الزبير حتى  
امتطى عروة ناقه نجبية ، ومعه مال خرج به إلى المدينة ،  
فأودعه هناك ، ثم وأصل السير إلى عبد الملك بدمشق حتى  
وصلها قبل رسل الحجاج ، فقال للحاجب : استأذن لى على  
أمير المؤمنين ، فسأله : من أنت ؟

فقال : قل له أبو عبد الله ، ولما أخبر الحاجب عبدالملك قائلا:

إن رجلا يستأذن ، ويقول : قل له أبو عبد الله .

قال : ذاك عروة بن الزبير ، أئذن له .

فلما دخل سلم عليه بالخلافة ، وعانقه ورحب به وأجلسه

على السرير . فقال عروة :

(١) العقد الفريد ج ٥ ص ١٧٨ ، ١٧٩

نمتُ بأرحام إليك قريبة ولا قرب للأرحام ما لم تقرب  
ثم جرى الحديث بينهما حتى وصل إلى عبد الله بن الزبير ،  
فقال عروة : بان ، فسأل عبد الملك : وما فعل ؟

أجاب عروة : قتل رحمه الله .

فخرَّ عبد الملك ساجدا .

قال عروة : فإن الحجاج صلبه ، فهب جثته لأمه .

قال : نعم . وكتب إلى الحجاج يعظم ما بلغه من صلبه ،  
وكتب إليه بشأن عروة قائلا : إن عروة كان مع أخيه ، فلما قتل  
عدو الله أخذ مالا من مال الله وهرب .

فكتب إليه عبد الملك : إنه لم يهرب ، ولكنه أتاني ميايغا ،  
وقد أمنتُه وحلته مما كان ، وهو قادم عليك ، فإياك وعروة .

ويبدو أن عروة كان قد عاد إلى الشام بعد دفن أخيه ، إذ  
كانت الصلاة بينه وبين عبد الملك قديمة أيام أن كانا يجلسان  
معا في مسجد المدينة ، وعزَّ على الحجاج أن يفلت عروة  
بالأموال ، فعاود الكتابة إلى عبد الملك بشأنه حتى همَّ عبد الملك  
أن يبعث به إلى الحجاج ، فقال عروة لما أحسَّ ذلك من عبد  
الملك : ليس الذليل من قتلتموه ، ولكن من ملكتموه ، وقال :  
ليس بملوم من صبر حتى مات كريما ، و لكن الملوم من خاف  
من الموت ، وسمع مثل هذا الكلام .

فقال عبد الملك : لن تسمع أبا عبد الله شيئا تكرهه<sup>(١)</sup> .

ويبدو أن عروة أقام بعض الوقت عند عبد الملك ، وأظهر  
عبد الملك من إكرامه والحفاوة به ما يليق بعروة ، وربما جدد

(١) راجع هذه الأحداث في أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣٦٨ - ٣٧٤ ، والعقد الفريد جـ ٥

ذلك لهما صحبتهما في مسجد المدينة ، لما كانا في أول الشباب جادين في تحصيل العلم والنسك ، وكان عبدالملك معجبا بعلم عروة ، وقد مرّ بنا إشارته على الزهري أن يلزمه ، فدخل هو وعروة يوما بستانا فأعجب عروة جماله ونظامه وشجره وثماره، فقال : ما أحسن هذا البستان .

فقال عبد الملك : أنت والله أحسن منه ، إن هذا يؤتى أكله كل عام وأنت تؤتى أكلك كل يوم<sup>(١)</sup> .

### هل ولس عروة اليمن لعبد الملك :

ذكر صاحب العقد الفريد أن عروة كان عاملا على اليمن لعبدالملك بن مروان ، وكانت العلاقة بين عروة والحجاج علاقة تربص وتوثب ، والحجاج رجل الدولة ، ويدها اليمنى ، ومُسْكُت منافسيها في العراق والحجاز ، وما كان له أن يستريح ، وهو يرى أخ عدو بني مروان اللدود يتولى عملا لهم على اليمن ، ولم ينس بعد الأموال التي أخذها واحتمى منه بعبدالملك ، واتصل بعروة أن الحجاج عازم على مطالبته بالأموال التي تحت يده ، وعزله عن عمله ، ففر إلى عبد الملك ، وعاز به تخوفا من الحجاج . واستدفاعا لضرره وشره .

فلما بلغ الحجاج لجوء عروة إلى عبد الملك غاظه ذلك وكتب إليه : أما بعد ، فإن لواء المعترضين بك ، وحلول الهائجين إلى المكث بساحتك ، واستلانتهم دمث أخلاقك ، وسعة عفوك كالعارض المبرق لأعدائه ، لا يقدم له شائما ، رجاء استمالة عفوك ، وإذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق مع كل ضال ، والناس عبيد العصى ،

هم على الشدة أشد استباقا منهم على اللين ، ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله ، وفي استخراجيه منه قطع لطمع غيره فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك والسلام .

يقول صاحب العقد الفريد : فلما قرأ عبد الملك الكتاب بعث إلى عروة ، ثم قال : إن كتاب الحجاج قد ورد فيك ، وقد أبقى إلا إشخاصك إليه ، ثم قال لرسول الحجاج : شأنك به .

فالتفت إليه عروة مقبلا عليه ، وقال : «أما والله ما ذلّ وخزى من مات ، ولكن ذلّ وخزى من ملكتموه ، والله لئن كان الملك بجواز الأمر ، وتفانذ النهى ، إن الحجاج لسلطان عليك ، ينفذ أموره دون أمورك ، إنك لتريد الأمر يزينك عاجله ، ويبقى لك أكرومة أجله ، فيجذبك عنه ، ويلقاه دونك ، ليتولى من ذلك الحكم فيه ، فيحظى بشرف عفو إن كان ، أو بجرم عقوبة إن كانت وما حاربك من حاربك إلا على أمر هذا بعضه» .

فنظر عبد الملك في كتاب الحجاج مرة أخرى بعد سماع مقالة عروة ، ورفع بصره إلى عروة تارة ، ثم دعا بدواة وقرطاس ، فكتب إليه : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رآك مع ثقته في نصيحتك خابطا في السياسة خبط عشواء الليل ، فإن رأيك الذي يسول لك أن الناس عبيد العصى هو الذي أخرج رجال العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أخرجت العامة بعنف السياسة ، كانوا أوشك وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي وهذاه إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك .

وقد وليت العراق قبلك ساسة وهم يومئذ أحمى أنوفنا ، وأقرب من عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم ، وللشدة واللين أهلون ، والإفراط في العفو أفضل من الإفراط في العقوبة والسلام .

### الأيام الأخيرة :

ولم تكد تتجلى هذه الشدة ، ويستريح الناس جميعا من الحجاج ، حتى يعود عروة إلى المدينة ، ويستقر بها ، وينصرف للعلم والفقه والمغازى والرواية عن رسول الله ﷺ ، إلى جانب البذل من جاهه وماله ما ينفع الناس ، وهو الذى حفر بئر عروة المعروفة حتى اليوم ، وكان فى منهجه فى نشر العلم متبعيا للأثر، مقتفيا له ، حتى قال ابنه هشام عنه : ما قال أبى فى شىء برأيه قط ، وكان قد عكف على بناء قصر له بالعقيق ، فلما انتهى منه وحفر بئره ، دعا جماعة فاطعمهم ، فلما عاتبوه على ترك المدينة ، قال تلك الكلمة التى رويت عنه ، والتى تشعر بأن الناس انصرفوا إلى ما لا ينفعهم ، فوجد السلامة فى البعد عنهم ، وقد يعبر عن ذلك قوله : « لم يعد فى المدينة إلا حاسد على نعمة أو شامت بمصيبة.

وتوفى عروة رحمه الله فى أرضه عام ٩٤ هـ على الصحيح ودفن بها ، وهى السنة التى يقال لها سنة الفقهاء لكثرة من توفى منهم فيها ، فرحمه الله ورضى عنه .

راهب قريش

أبو بكر بن عبد الرحمن

(٥٩٤)





أحد فقهاء المدينة، الذين كانت تدور عليهم الفتوى، وأحد الفقهاء الذين اتخذهم عمر بن عبدالعزيز للشورى، فكان لا يقضى أمرا إلا بعد أن يعرضه عليهم، كان ثقة، فقيها، كثير الحديث، عالما عاقلا، سخيا، يقصده الناس للاستعانة به فى قضاء حوائجهم سواء من ماله الخاص، أو فى الشفاعة لهم عند أصحاب السلطان، إذ كان له مكانة خاصة، وصدافة لعبدالمملك كان يستعملها فى عون أصحاب الحاجات عند أهل الحل والعقد من ذوى الجاه والسلطان.

أبوه عبدالرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة، المعروف بالشريد، وأمه فاختة بنت عتبة بن سهيل بن عمرو، أتى بهما من الشام، فسامها عمر بن الخطاب الشريدين، وقال : زوجوا الشريد الشريدة، لعل الله ينشر منهما خيرا فتزوجا، وأقطعهما عمر بالمدينة خطة أوسع لهما فيها. فقل له : أكثرت لهما يا أمير المؤمنين، فقال : عسى الله أن ينشر منهما ولدا كثيرا رجالا ونساء، وكأنما كان عمر ينظر بظهر الغيب، فقد كان لأبى بكر إخوة أشقاء هم : عمر وعثمان، وعكرمة وخالد ومحمد، وأختهم حنتمة، والمغيرة وأبو سعيد من أمهات أخريات.

وقد سرت الأمور بأبى بكر حتى صار سيذا من سادات قريش علما وكرما وسخاء وأمانة وسداد رأى، ومكانة مرموقة، وكان ذا منزلة عالية. عند عبدالمملك بن مروان، حتى إنه لما حضرته الوفاة أوصى ابنه الوليد قائلا : يا بنى إن لى بالمدينة صديقين، فاحفظنى فيهما، عبدالله بن جعفر بن أبى طالب، وأبا بكر بن عبدالرحمن، وكان يقول : إنى لأهم بالشىء أفعله

بأهل المدينة لسوء أثرهم عندنا، فأذكر أبا بكر بن عبدالرحمن،  
فأستحي منه، فادع ذلك الأمر.

وكانت مكانة أبي بكر هذه تجعل الناس يقدمون إليه يسألونه  
أن يعاونهم في سداد ما حلّ بهم من مغارم، لما عرف عنه من  
المسارعة في مثل هذه الأمور.

فقد ذكر أن جماعة من بني أسد بن خزيمة، وقدوا عليه  
يسألونه أن يتحمل عنهم دماء «ديات» كانت بينهم - وكانت عادة  
العرب أن يتجهوا بمثل هذه القضايا إلى من تدفعهم همهم  
العالية، وشرقهم أن يتحملوا المغارم عن الناس حتى يحل  
السلام بينهم - فتحمل أربع ديات، ورأى أن يستعين بأخيه  
المغيرة بن عبدالرحمن، وكان جوادا أيضا في تحمل هذه الديات،  
وكان لأبي بكر ولد شاب عاقل كان يصحب أباه إلى المسجد  
بعدما كف بصره، فقال له أبوه : يا بني اذهب إلى عمك المغيرة  
ابن عبدالرحمن ، فأعلمه ما حملنا من هذه الديات ، واسأله  
المعونة.

فلما ذهب إلى عمه، وأخبره بما قاله أبوه، لم تطب نفسه  
بالمعاونة، وقال لابن أخيه : أكثر علينا أبوك. وينصرف الفتى  
من لقاء عمه غير الناجح، وتمضى أيام لا يذكر لأبيه ما رد به  
عمه عليه، حرصا على حسن الصلات بينهما، وذات يوم، وهما  
في الطريق إلى المسجد، سأله أبوه : أذهبت إلى عمك ؟  
فأجاب : نعم. وسكت.

وأدرك أبو بكر من سكوت ابنه أنه لم يجد عند عمه ما يجب،  
وكانما أعجب أبا بكر مسلك ابنه الحكيم، فأراد أن يفريه

بالمداومة على هذا التصرف النبيل، من الحرص على سلامة القلوب بين الأشقاء، فقال له : يا بني، لا تخبرنى ما قال لك، فإن لا يفعل أبو هاشم «يعنى أخاه المغيرة» وربما أفعل، وأغد غدا إلى السوق، فخذ لى عينة «يعنى مما يباع، فغدا عبدالله إلى السوق، ففعل ما أمره به أبوه. ثم باعها، وأقام أياما ما يبيع فى السوق طعاما ولا زيتا غير عبدالله بن أبى بكر من تلك العينة، فلما فرغ أمره أبوه أن يدفعها إلى الأسديين ففعل.

أما المغيرة بن عبدالرحمن أخو أبو بكر، فكان أيضا جوادا وكان يطعم الطعام حيثما ينزل، وينحر الجوز، ويطعم من جاء، وكان قد شارك فى الغزو مع مسلمة بن عبدالملك فى بلاد الروم، وأصيبت عينه فى إحدى هذه الغزوات، فصار أعور، ومن طريف ما وقع له بعد ذلك أنه بذل الطعام للناس فى يوم من الأيام، التى تعود أن يفعل فيها ذلك، وكان بين الطاعمين أعرابى جعل يديم النظر إلى المغيرة، ولا تمتد يده إلى الطعام، ولقت تصرفه نظر المغيرة فسأله : ألا تأكل من هذا الطعام ؟ مالى أراك تديم النظر إلى.

فقال البدوى فى صراحة الصحراء التى لا تعرف المواربة :  
إنه ليعجبنى طعامك، وتريبنى عينك.

قال : وما يريبك من عيني ؟

قال : أراك أعور، وأراك تطعم الطعام، وهذه صفة الدجال.  
فقال له المغيرة : إن الدجال لا يصاب بعينه فى سبيل الله<sup>(١)</sup>.  
وقد أجرى سخاء المغيرة ألسن الشعراء بالثناء عليه، فقد قدم الكوفة يوما، فنحر الجوز، وأطعم الطعام، والثريد على الأنطاع،  
فقال الأقيشر الأسدى :

(١) نسب قریش ص ٣٠٤، ٣٠٥.

أتاك البحر طمّ على قريش  
مغيرى وقد راع ابن بشر  
ومن أوتار عقبة قد شفانى  
ورط الحاطبى ورط صخر  
فلا يغررك حسن الرأى منهم  
ولا سرج بيـزيون<sup>(١)</sup> ونحر  
ومن سقاء المغيرة أنه وقف ضيعة على طعام يصنع بمنى  
أيام الحج.

وكان أخوه عكرمة أيضا من ذوى الشأن فى أيامه، وكان  
ثقة، قليل الحديث، وفيه يقول حكيم بن عكرمة الديلى لما تزوج  
بنت عمر بن عبدالله بن معمر :

تبشر يا ابن مخزوم بخود  
أبوها من بنى تيم الرباب  
أتتك بمال شيراز وفسا  
وسايور الذى دون التقاب  
فتلك مآثر الأموال لا ما  
تُجمّع يوم سعدى والرباب

هذا حديث عابر عن أخوى أبى بكر قد كان لهما شأن فى  
قومهما أما أبو بكر فقد ولد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى  
الله عنه، وكان يوم الجمل لما يبلغ مبلغ الرجال بعد، فقد  
استصغر وردّ هو وعروة بن الزبير، وهذا يعنى أن فقدّه بصره  
كان بعد أن تقدمت به السن، وسمى راهب قريش لكثرة صلاته  
ولفضله، وقد روى عن أمى المؤمنين عائشة وأم سلمة رضى  
الله عنهما، وعن أبى مسعود الأنصارى .

(١) البزيون السندس أو رقيق الديباج.

وكان شأنه شأن فتيان قريش، له من النعمة واليسار ما يجعل حياته سهلة رخيّة، فقد كان يلبس كساء الخنز، ويميل إلى الأناقة في مظهره وملبسه. فكان يأخذ من شاربه أخذا حسنا، ولا يحفيه، وفي مظهره ذلك مشابهة كثيرة مما عرف عن سعيد بن المسيّب وسواه من فقهاء المدينة.

وكان أبو بكر حريصا على أن يكون حسن السمعة، طيب الأحدوتة، معروفا بالأمانة والثقة، فقد استودع عنده عروة بن الزبير مالا لبنى مصعب، فأصيب ذلك المال، وذهب كله أو بعضه في ظروف لا مسئولية لأبي بكر عنها. فأرسل إليه عروة يقول : لا ضمان عليك، إنما أنت مؤتمن، ولكن أبا بكر لا ترضى له همته ولا مكانته ذلك، وعلى الرغم من أنه يعرف أنه لا ضمان عليه - إذ كان كلاهما فقيها - فقد أبى إلا أن يرد المال الضائع، وقال : قد علمت أن لا ضمان عليّ، ولكن لم تكن لتحدث قريش أن أمانتى خربت. وباع جانبا من أملاكه، ففضى بثمنه ما فقد<sup>(١)</sup>. وكان أحد الفقهاء الذين كان يستشيرهم عمر بن عبدالعزيز إذا ما عرضت له قضية، وكان ممن صحب عمر بن عبدالعزيز لتلقى الوليد حين حضوره إلى المدينة.

ولما فسد الأمر بين سعيد بن المسيّب وإسماعيل بن هشام المخزومي والى المدينة أيام عبدالملك حاول أن يكسر حدة الخلاف، ويوقع الصلح بين سعيد والوالى، وواجه سعيد بعنف وهو فى محبسه، ولكنه لم يتأثر منه، لأنه كان يريد إزالة الجفوة بينهما، ومن متابعة الحوار الذى دار بينهما يتبين أن أبا بكر كان هادئ الطبع لين العريكة، يحب أن يعالج الأمور فى

أناة ورفق، بدون تحد ولا عناد، على النقيض من سعيد بن المسيب الذي كان حاد الطبع، والذي جرت عليه صلابته كثيرا من المتاعب والآلام.

وقد أثر عن أبي بكر أنه كان يقول : إنما هذا العلم لواحد من ثلاثة، لدى نسب يزين به نسبه أو لدى دين يزين به دينه، أو مختلط بسلطان ينتجعه به، ولا أعلم أحدا أجمع لهذه الخلال من عروة بن الزبير، وعمر بن عبدالعزيز، كلاهما ذو دين وحسب، ومن السلطان بمنزل<sup>(١)</sup>.

وكان منهج أبي بكر هو منهج فقهاء المدينة الذين يتزعمهم سعيد بن المسيب، وكانت لهم وجهة نظر تكاد تكون واحدة في تناول المشكلات المختلفة، وقد روى عن أبي بكر أنه قال : ما عليه أهل المدينة هو السنة.

وقد أخذ عنه كثير من مشاهير العلماء في عصره، ومن أبرزهم ابن شهاب الزهري، الذي عدّه من بين الأربعة الذين لاقى بهم بحورا.

وروى عنه أولاده عبدالملك، وعمر، وعبدالله، وسلمة، وأشهر أولاده في الرواية عنه هو عبدالملك.

### وفاته :

وقد جرى على أبي بكر ما جرى ويجرى على كل حي، فانتقل إلى رحمة ربه سنة أربع وتسعين هجرية على الأرجح، وكانت تسمى سنة الفقهاء لكثرة من توفي منهم فيها.

وقيل في وفاته : إنه صلى العصر، فدخل مغتسله فسقط، فجعل يقول : والله ما أحدثت في صدر نهارى هذا شيئا، فما غربت الشمس حتى انتقل إلى رحمة الله.

(١) حلية الأولياء ج ٢ ص ١٨٧.

عبدالله بن عبد الله بن عتبة

(٥٩٨)





أحد فقهاء المدينة السبعة، الذين كان يدور عليهم أمر الفتوى، كان عالما فاضلا، فقيها تقياً، وكان شاعرا رقيقا غزلا، ذا حس مرهف، وعاطفة جياشة، وخلق سمح، وكان إلى جانب هذا كله ثقة، كثير الحديث، وحسبه أنه أحد الفقهاء الذين يرجع إليهم أهل المدينة في معرفة أمور دينهم.

وقد قيل عنه : لم يكن بعد الصحابة فقيه أشعر منه، ولا شاعر أفقه منه، ذلك هو عبيدالله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود.

#### أسرته :

كان أبوه عبدالله رجلا صالحا. تولى بعض الأعمال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه. فحمد سيرته. ولعبيدالله أخوان، هما عون، وعبدالرحمن، وقد اشتهر عون بالفقه والأدب والنسك، وكان وثيق الصلة بعمر بن عبدالعزيز وله دالة عليه، وكان يدخل عليه فى أى وقت يشاء. بلا إذن مسبق، وهو الذى توجه إليه جرير بقوله لما طال بالشعراء الانتظار أمام باب عمر :

يا أيها القارئ المرخى عمامته

هذا زمانك إنى قد مضى زمنى

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقية

أنى لدى الباب كالمصفود فى قرن

وكان عون هذا يرى الإرجاء ثم رجع عنه، وله شعر يقول

فيه :

فأول ما أفارق غير شك

أفارق ما يقول المرجثونا

وقالوا مؤمن من آل جور  
وليس المؤمنون بجائرينا  
وقالوا مؤمن دمه حلال  
وقد حرمت دماء المؤمنين

وكانت له مشاركة في أحداث عصره، فقد اشترك في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج، وهرب بعد هزيمة ابن الأشعث، فلجا إلى محمد بن مروان بن الحكم بنصيبين فأمنه، ووكل إليه تاديب ولديه مروان وعبدالرحمن، وقد سأله يوما : كيف رأيت ابني أخيك؟

فقال : أما عبدالرحمن فطفل، وأما مروان، فإنني إن أتيت حجب، وإن قعدت عنه عتب، وإن عاتبتك صخب، وإن صاحبته غضب، ثم تركه ولزم عمر بن عبدالعزيز.

وأما عبدالرحمن فلم تكن له نباهة أخويه ولا فضلها فحمل ذكره<sup>(١)</sup>. وأما جده فعتبة بن مسعود أخو عبدالله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ.

شيوخه :

كان عبيد الله من فضلاء التابعين، وروى الحديث عن أبيه، وأرسل عن عم أبيه عبدالله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وأبي هريرة وابن عباس وعائشة، وابن عمر، وعثمان وسهل ابني حنيف، والنعمان بن بشير وأبي سعيد الخدري وأبي طلحة الأنصاري، وأبي واقد الليثي، وفاطمة بنت قيس، وزيد بن خالد،

(١) راجع الاغانى ج ٩ ص ١٢٩ - ١٤٠ طبع دار الكتب.

وعبدالرحمن بن عبدالقارى، وأم القيس بنت محصن<sup>(١)</sup> .  
**تلاميذه :**

روى عنه أخوه عون بن عبدالله، ومحمد بن شهاب الزهرى،  
وسعد بن ابراهيم، وأبو الزناد، وصالح بن كيسان وعراك بن  
مالك وموسى بن أبى عائشة، وأبو بكر بن الجهم العدوى،  
وضمرة بن سعيد، وطلحة بن يحيى بن طلحة، وعبدالله بن  
عبيدالله الريذى، وعبدالمجيد بن سهل بن عبدالرحمن بن عوف،  
وحصيف الجذرى<sup>(٢)</sup> .  
**علمه وقوة حافظته :**

كان عبيد الله ذا حافظلة واعية حتى قال عن نفسه فيما يرويه  
ابن حجر : ما سمعت حديثاً قط، ما شاء الله أن أعيه إلا وعيته.  
وكانت هذه المقدرة إلى جانب دينه وتقواه مؤهلات له أن يكون  
أحد فقهاء المدينة السبعة، وأن ينال احترام العلماء وتقديرهم له،  
وثناءهم عليه، سواء كانوا معاصرين له، أو متأخرين عنه، وحتى  
أدهشت غزارة علمه رجلاً مثل الزهرى فقال عنه : كنت إذا لقيت  
عبيد الله بن عبدالله بن عتبة فكأنما أفجر به بحراً<sup>(٣)</sup> .

ويقول فى مجال آخر : ما جالست أحداً من العلماء إلا أرى  
أنى قد أتيت على ما عنده، وقد كنت اختلفت إلى عروة حتى  
ماكنت أسمع منه إلا معاداً ما خلا عبيدالله بن عتبة، فإنى لم آت  
إلا وجدت عنده علماً طريفاً<sup>(٤)</sup> .

وروى عنه أيضاً قوله : سمعت من العلم شيئاً كثيراً، فلما  
لقيت عبيدالله بن عبدالله كأتى كنت فى شعب من الشعاب فوقعت

(١) ، (٢) راجع تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٢٢، وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ٧٤..

(٣) راجع العقد الفريد ج ٢ ص ٩٤ تحقيق محمد سعيد العريان.

(٤) راجع تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٢٤.

فى الوادى، وفى رواية أخرى : فسرت كانى لم أسمع من العلم شيئاً<sup>(١)</sup>.

وحديث الزهرى عنه حديث رجل لاقاه ودارسه وأخذ عنه وعن غيره، واستطاع أن يدرك عن قرب الفرق بينه وبين غيره من العلماء وهذه الغزارة فى العلم مع رحابة الأقق، وطلاوة الحديث، وحسن السمى. وعلو النفس - كل هذه القدرات جعلت رجلاً مثل عمر بن عبدالعزيز يتمنى الجلوس إليه، والاستماع إلى حديثه، ويقول : لى لى مجلساً من عبيدالله بن عتبة بألف دينار<sup>(٢)</sup>.

وقد أورد ابن خلكان هذا الخبر بتفصيل أتم حيث يقول : قال عمر بن عبدالعزيز : لأن يكون لى مجلس من عبيدالله أحب إلى من الدنيا وما فيها، وقال لأصحابه : والله إنى لأشترى ليلة من ليالى عبيدالله بألف دينار من بيت المال.

فقالوا له : يا أمير المؤمنين، تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك ؟

فقال : أين يذهب بكم، والله، إنى لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بالوف والوف. إن فى المجادلة تلقيحاً للعقل وترويحاً للقلب، وتسريحاً اللهم، وتنقيحاً للأدب<sup>(٣)</sup>.

وكان دائماً يقول : لو كان عبيدالله بن عبدالله بن عتبة حياً ما صدرت إلا عن رأيه، وهذه ثقة مجرب فى رجاحة عقل عبيدالله، واستقامة دينه، وسداد رأيه. وحينما يقول عمر ذلك بعدما جلس

(١) الاغانى ج ٨ ص ٨٩. (٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٩٢.

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢.

بين يديه سنوات يتلقى على يديه العلم والحديث والأدب إنما يقوله عن تجربة ودراية لا يبتغى بما يقول إلا مرضاة الله وهو من يُعرف نسكا وزهدا وعدلا حتى لقب بخامس الخلفاء الراشدين.

### عبيد الله وعمو بن عبد العزيز :

كانت صلة عبيد الله بعمر بن عبد العزيز وثيقة إذ كان معلمه، وله عليه من الدالة والحقوق ما للأستاذ على تلميذه، ولعل هذا هو سبب الإجلال والتقدير اللذين يبدوان في حديث عمر عن عبيد الله، حتى إنه لما ولي الخلافة قال : لو كان عبيد الله حيا ما صدرت إلا عن رأيه.

ولعل المزاج المشترك بين الرجلين كان يجمع بينهما، فقد كان عمر في شبابه مترفا مولعا بالغناء مع علم وعفاف وتقى ودين، وكانت روح الشاعر التي تلون حديث عبيد الله فيما أظن هي التي قرّبت من قلب عمر، ولعل هذه الصلة توثقت لما كان عمر واليا على المدينة وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الصلة لم تمنع عبيد الله أن يجابه عمر بما يراه أنه قد أخطأ فيه، وأن يحاسبه عليه حسابا أقل ما يوصف به أنه ليس فيه مجاملة، ولا حتى لطف في توجيهه إلى الصواب، وقد كان ما يمتاز به عمر من متانة الخلق والدين واستقامة المسلك ما جعله يحفظ لأستاذه منزلة الأستاذية من غير أن تأخذه عزة الحكم، ولا سطوة السلطان، ويبدو أن عمر في صدر شبابه بحكم انتسابه لبني أمية، وما كان يجري في مجالسهم قد جرى على لسانه ما يفهم منه أنه عيب لبعض الصحابة، فبلغ ذلك عبيد الله، وكان من عادة عمر أن يتردد عليه، ويأتي مجلسه من حين لآخر،

ومما لا شك فيه أن عبيدالله كان يتلقاه بالبشر والترحاب والإقبال عليه بما يليق برجل في مثل مكانته ومركزه وسلطانه وأخلاقه ومعرفته، إلا أن عبيدالله بعدما بلغه ما نسب إلى عمر من الوقوع في بعض الأصحاب لم يلتفت إليه حين جاءه، ولم يستقبله بالترحاب والبشاشة التي عهدا منه، وكان في عمر عقل وحكمة وذكاء، فأدرك أن هناك سبباً جعل عبيدالله يغير من عادته معه فأقبل عليه قائلاً في أدب جم وتواضع تحسده عليه ملوك الدنيا وسادتها: يا أبا محمد، إن لك لشأناً، فإن رأيت لى عذراً فأقبل عذرى.

فقال عبيدالله: أنتهم الله فى علمه ؟

أجاب عمر : أعوذ بالله.

تابع عبيدالله : أنتهم رسول الله ﷺ فى حديثه ؟

ويجيب عمر : أعوذ بالله.

فيعقب عبيدالله قائلاً : يقول الله عز وجل ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾<sup>(١)</sup>، وأنت تقع فى فلان، وهو ممن بايع، فهل بلغك أن الله سخط عليه بعد أن رضى عنه؟ ويجيب عمر مدعنا للحق ممثلاً له : والله لا أعود أبداً<sup>(٢)</sup>.

والذى يقف على هذا الحوار، لا يملك إلا أن يثنى على عبيدالله بشجاعته فى الحق، وبذله النصيحة لله، وممارسة دوره فى الاستاذية والتوجيه حتى ولو كان ذلك مع الوالى اليوم والخليفة غدا وهذا أمر محمود ولا شك، إلا أن الموقف الذى يملأ النفس والقلب بالإجلال والإعظام هو موقف عمر، الذى لم يأنف من قبول النصيحة، ولم يستنكف من الاعتراف بالخطأ، ولم يتردد فى

(١) سورة الفتح آية رقم ١٥ . (٢) راجع الاغانى ج ٨ ص ٩٥ .

الاعتذار عما بدر منه، وما أجمل امتثاله للحق حينما بدت له ملامحه من آيات الله سبحانه، وصدق حديث من يحاسبه، وأكثر من ذلك وأبلغ في السمو عيانه بالله، مما ظن أنه قد يرمى به بالنسبة لكلام الله سبحانه وحديث نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

ولا شك أن الطبيعة السمحة للرجلين جعلت الموعدة تبلغ غايتها، وتفعل فعلها، وتؤدي رسالتها، وهكذا يكون الجهر بالحق والانصياع له عظمة للقاتل والمستجيب على السواء.

تلك المقدره التي أوتيها عبيد الله من الجهر بما يعتقد الحق حتى ولو كان غير ما يرى الوالى، حتى وإن كان ذلك الوالى عمر بن عبدالعزيز القريب إلى نفسه، المحبب إلى قلبه، تتجلى فى الموقف التالى بين عمر بن عبدالعزيز وعروة بن الزبير، فقد كان عبيد الله وعروة يجريان فى قرن فقها وعلماء وفضلاء، وهما من فقهاء المدينة السبعة، دخلا معا على عمر بن عبدالعزيز، وهو أمير المدينة، فجرى ذكر عائشة وعبد الله بن الزبير، فقال عروة : سمعت عائشة تقول : ما أحببت أحدا حبى عبد الله بن الزبير لا أعنى رسول الله ﷺ ولا أبوى . فلما سمع عمر ذلك قال : إنكم لتنتحلون عائشة لابن الزبير انتحال من لا يرى لكل مسلم مع فيها نصيبا.

فقال عروة : بركة عائشة كانت أوسع من أن لا يرى لكل مسلم فيها حق. ولقد كان عبد الله منها بحيث وضعت الرحم والمودة التي لا يشرك كل واحد منهما فيه عند صاحبه أحد. فقال عمر : كذبت.

فرد عروة : هذا عبيد الله بن عتبہ بن مسعود يعلم أنى غير

كاذب، وأن من أكذب الكاذبين من كذب الصادقين. فسكت  
عبيدالله، ولم يدخل بينهما في شيء، فأقف بهما عمر، وقال :  
أخرجنا عنى، ثم لم يلبث أن بعث إلى عبيدالله بن عتبة رسولا  
يدعوه لبعض ما كان يدعو إليه، فكتب إليه عبيد الله يقول :

لعمر ابن ليلى وابن عائشة التى  
لمروان أدته، أب غير زُمَّل<sup>(١)</sup>  
لو انهم عما وجداً ووالدا  
تأسوا فسنوا سنة المتعطل  
عذرت أيا حفص وإن كان واحدا  
من القوم يهدى هديهم ليس يأتلى  
ولكنهم فاتوا وجئت مصلياً  
تقرب<sup>(٢)</sup> إثر السابق المتمهل  
وعمت<sup>(٣)</sup> فإن تسبق فضيء مبرز  
جواد، وإن تسبق فنفسك فاعدل  
فما لك بالسلطان أن تحمل القذى  
جفون عيون بالقذى لم تكحل  
وما الحق أن تهوى فتسعف بالذى  
أويت إذا ما كان ليس بأعدل  
أبى الله والأحساب أن ترام<sup>(٤)</sup> الخنى  
نفوس كرام بالخنى لم تُوكَّل<sup>(٥)</sup>  
وتعود عبيد الله أن يمرّ بعمر من وقت لآخر، لا يحول بينه

(١) الزمّل : الضعيف

(٢) التقريب عدو دون الإسراع.

(٣) دعمت : سرت.

(٤) ترام الخنى : قرضاه.

(٥) الاغانى ج ٩ ص ١٤٢ - ١٤٣.



وبين ذلك حارس ولا حاجب، ولكنه ذات يوم ذهب كعادته، إلا أن الحاجب لم يأنن له، ورد قائلاً : إن عنده عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وهو مُختل به، فما كاد يسمع ما قاله الحاجب، حتى انصرف مغضباً ظاناً أن هذه تعليمات عمر، ولم يكد يستقر به المكان حتى بعث إلى عمر بهذه الأبيات الغاضبة :

وإني امرؤٌ من يصفني الود يلفني  
وإن نزلت دارٌ به دائم الوصل  
عزيزٌ إخواني لا ينال مودتي  
من الناس إلا مسلم كامل العقل  
ولولا اتقائي الله قلت قصيدة  
تسير بها الركبان أبردتها يغلي  
بها تنقض الأحلاس<sup>(١)</sup> في كل منزل  
وينفي الكرى عنه بها صاحب الرحل  
كفاني يسيرٌ إذ أراك بحاجتي  
كليل اللسان ما تُمرو ما تُجلي<sup>(٢)</sup>  
تلاوذ<sup>(٣)</sup> بالأبواب منى مخافة الملامة  
والإخلاف شرٌّ من البخل  
أبن لي فكن مثلي أو ابتغ صاحباً  
كملك إني تابع صاحباً مثلي  
وما يلبث الفتيان أن يتفرقوا  
إذا لم يؤلف روحٌ شكلٍ إلى شكل<sup>(٤)</sup>

(١) الاحلاس جمع جلس وهو ما يلي ظهر البعير أو الدابة والمقصود أنها تقلب الأمور رأساً

على عقب. (٢) ما تُمرو وما تجلي يعني لا تتفجع ولا تضر.

(٣) تلاوذ : تراوغ

(٤) راجع الأغاني جـ ٨ ص ١٤٣ - ١٤٤.

وقد اختلف ترتيب هذه الأبيات في بعض كتب الأخبار وهي تكشف عن مدى اعتزاز عبيدالله بنفسه، وحرصه على كرامته، ووقوفه من عمر بن عبدالعزيز موقف الذئ، فليس معنى الولاية أن يحجب الأكاير عن بابه، أو أن ينتظر من عبيدالله أن يعود إليه بعد أن يرده حاجبه عن بابه، ويعلن في صراحة أنه لا يحول بينه وبين التشهير به في شعره إلا تقوى الله، ويعلن لعز في وضوح أنه لا يقبل صحبته إلا إذا كان عمر يراه مساويا له، ولا يرى لنفسه عليه تقدا، فإن كان عمر غير راغب في ذلك فليس هناك داع إلى هذه الصحبة وليبحث له عن صاحب سواه، لأن الأصحاب إذا لم يجمع بينهم تماثل في الأمزجة فإن تفرقهم وشيك، وفي هذا إلماح إلى معنى الحديث النبوي «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»<sup>(١)</sup>.

وما كاد عمر يعلم بأمر هذه الأبيات، وغضببة عبيدالله حتى بعث إليه باثنين من أصحابه المقربين إليه هما أبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وعراك بن مالك يبلغانه اعتذاره ويخبرانه أن عمر يقسم بالله ما أعلم بإتيانك، ولا برد الحاجب إليك، فعذره عبيدالله وقيل منه.

ويبدو أن أحداث الرضا والخصام قد تكررت بين عبيدالله وبين عمر، فقد روى عن ابن شهاب الزهري قال : جئت عبيدالله بن عبدالله يوما في منزله، فوجدته ينفخ، وهو مغتاظ، فقلت له : مالك؟ فقال : جئت أميركم آنفا، فسلمت عليه وعلى عبدالله بن عمرو ابن عثمان فلم يردها عليّ، فقلت :

(١) الحديث متفق عليه .

فما تراب الأرض منها خلقتما  
ومنها المعاد والمصير إلى الحشر  
ولا تأنفنا أن تسألا وتسألما  
فما حشى الإنسان شرا من الكبر  
فلو شئت أن ألقى عدوا وطاعنا  
لألفيته أو قال عندي في السر  
فإن أنا لم أمر ولم أنه عنكما  
ضحكت له حتى يلج ويستشري  
وكيف يريدان ابن تسعين حجة  
على ما أتى وهو ابن عشرين أو عشر  
فقلت له : رحمك الله، أتقول الشعر في فضلك ونسكك؟!  
قال : إن المصدور إذا نفث برا<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن هذه المعاتبات لم تأخذ طريقها بين عبید اللہ وبين  
عمر إلا بعدما تقدمت السن بعبید اللہ ، وكف بصره ، وربما  
وجد الوشاة في ذلك سبيلا ليوغروا صدر عبید اللہ على عمر،  
منتهزين عدم إبصاره، أو ربما يكون عمر أثناء مروره بعبید اللہ  
في شغل شاغل لم يدع له فرصة الانتباه للزائر أو الانصراف  
إليه كما تعود عبید اللہ منه قبل ذلك، وكان فقد بصره فيما أظن  
سببا نفسيا جعله يستشعر من تلميذه تقصيرا في حقه، أو  
قعودا عن القيام بالواجب نحوه، إلى جانب ما كان يصوره له  
مصاحبوه من انصراف عمر عنه وعدم اهتمامه به، وربما  
أضافوا إلى ما سبق شيئا على لسان عمر فيه لون من العتب أو  
اللوم لعبید اللہ، ولعلنا نستطيع أن نفهم على ضوء هذا

(١) الأغاني ج ٨ ص ١٤٥ - ١٤٦ . (٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٩٤ .

الاستفتاح ما رواه ابن عبد ربه فى العقد الفريد قائلا : وكان قد بلغ عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود شىء يكرهه عن عمر ابن عبدالعزيز فكتب إليه :

أبا حفص أتانى عنك قول

فضقت به وضاق به جوابى

أبا حفص فلا أدرى أرغمى

تريد بما تحاول أم عتابى؟

فإن تك عاتبا نعتب وإلا

فما عودى إذا بيراع غاب

وقد فارقت أعظم منك رزءا

وواريت الأحببة فى التراب

وقد عزوا على وأسلمونى

معا فليست بعدهم ثيابى

ويبدو أن هذه الحساسية المفرطة قد أفسدت على عبيدالله صلته بإخوانه، ولاشك أن العامل النفسى كان بعيد الأثر فى هذه الحساسية، لا سيما بعد فقد بصره، فقد انعكس أثر ذلك أيضا على موقفه من صديقيه عراك بن مالك، وأبى بكر بن حزم، فقد مضى عليهم زمن، وهم رفقة وأصدقاء يتجالسون ويتجاذبون أطراف الحديث، ويخوضون فى أبواب من الفقه وضروب من العلم، وتصرف الزمن بهم حتى أصيبت عينا عبيدالله فكف بصره فى شيخوخته، وتولى ابن حزم إمارة المدينة، وتولى عراك بن مالك قضاءها، وكانا أثناء تقلدهما لعملهما يمر الواحد منهما بعبيدالله، فلا يقف إليه ولا يسلم عليه كما كانت

عادتهما من قبل، وكان لا يعرف منهما ذلك لذهاب بصره، فلما  
أخبر بصنيعهما ممن حوله غضب وثار، وأنشد :

ألا أبلغا عنى عراك بن مالك  
ولا تدعنا أن تثنيا بأبى بكر  
فقد جعلت تبدو شواكل منكما  
كأنكما بى موقران من الصخر  
يطاوعتما بى داعكا<sup>(١)</sup> ذا معاكة<sup>(٢)</sup>  
لعمري لقد أزرى وما مثله يزرى  
ولولا اتقائى ثم بقيائى فيكما  
للمتكما لوما أحرر من الجمر  
فما تراب الأرض منها خلقتما  
ومنها المعاد والمصير إلى الحشر  
ولا تأنفا أن تسألا وتسلمبا  
فما حشى الإنسان شرا من الكبر  
فلو شئت أن ألقى عدوا وطاعنا  
لألفيته أو قال عندى فى السر  
فإن أنا لم أمر ولم أنه عنكما

ضحكت له حتى يلج ويستشرى<sup>(٣)</sup>

ويلاحظ أن بعض الأبيات هنا مكرر مع ما سبق، ولعله كثر  
هذه الأبيات فى المناسبتين ما دام الموضوع واحدا والشاعر  
واحدا أيضا، ويلاحظ أن الأبيات الأربعة الأولى لم ترد فى  
القصيدة السابقة، وأن الأبيات الأخيرة قد تكررت مع اختلاف  
طفيف فى التركيب وإن كانت تبدو هنا أكثر اتساقا منها هناك.

(١) الداعك : الاحمق. (٢) المعكة : الحمق. (٣) الأغانى ج ٩ ص ١٤٥.

## أيام الشباب :

كان عبيدالله فى شبابه يستهويه الجمال، ويأسر فؤاده، ولا يرى بأساً من أن ينفث عن نفسه بمقطوعات يعبر فيها عن وجدته وهواه، وما يعانيه من لوعات الهوى وحرقاته، على عادة الشعراء الغزليين، ولكن فى عفة، ورقة حاشية، وترفع عن هجر القول

ويروى أن امرأة جميلة من هذيل قدمت المدينة من ناحية مكة، فتقدم كثيرون لخطبتها، وكاد أن يذهب بعقول أكثرهم جمالها، وقد شارك عبيدالله فى الحديث عن حسننها، ومعالجة هواها، واستشهد على صدق معاناته بفقاء المدينة السبعة الذين يعدونه واحدا منهم. وفى هذا يقول :

أحبك حباً لو علمت ببعضه  
لجئت ولم يصعب عليك شديد  
وحبك يا أم الصبى مدلهى  
شهيدى أبو بكر، وأنى شهيد  
ويعلم وجدى القاسم بن محمد  
وعروة ما ألقى بكم وسعيد  
ويعلم ما أخفى سليمان علمه  
وخارجة بيدى لنا ويعيد  
متى تسالى عما أقول فتخبرى  
فلحِب عندى طارف وتليد  
ولما بلغت هذه الأبيات سعيد بن المسيب قال : والله لقد أمن  
أن تسألنا، وعلم أنها لو استشهدت بنا لم تشهد له بالباطل  
ضدها<sup>(١)</sup>.

(١) الأغانى ج ٩ ص ١٤٨.

### زواجه بعثمة :

كان عبیدالله قد تزوج امرأة اسمها عثمة، وكان لها في قلبه مكانة لا تدانيها مكانة، فوقع بينهما بعض ما يوجب العتاب، ثم تطور الامر حتى انتهى بهما إلى الطلاق، ولكن حبها لم يطلق فؤاده، ولم ينله رقادها، فأسهر ليله، وأرق نهاره، ولم يستطع أن يكتف ما به من هواها، فانطلق شعره ينفث حرقات فؤاده، وما يلقاه من جراء ذلك الفراق الذي ألمه وأدمى قلبه.

ومن خير ذلك ما رواه الزبير بن بكار قال : قال لى عمى :  
لقينى على بن صالح، فأنشدنى بيتا، وسألنى : من قائله ؟ وهل فيه زيادة ؟ فقلت : لا أدرى، وقد قدم ابن أخى - يعنى الزبير -  
وقل ما فاتنى شيء إلا وجدته عنده.

قال الزبير : وأنشدنى عمى البيت ، وهو :  
غراب وظبى أعضب<sup>(١)</sup> القرن ناديا  
بصرم<sup>(٢)</sup> وصردان<sup>(٣)</sup> العشى تصيح  
فقلت له : قائله عبیدالله بن عبد الله بن عتبہ وبعده :

لعمري لئن شطت<sup>(٤)</sup> بعثمة دارها  
لقد كدت من وشك الفراق أليح<sup>(٥)</sup>  
أروح بهم ثم أغسدو بمثلته  
ويحسب أنى فى الشيباب صحيح  
فكتبهما عمى، وانصرف بهما إليه

وقد كانت عثمة قد ملكت فؤاده، واستولى حبها عليه، وعبر  
عن ذلك بقوله :

(١) أعضب القرن : مكسور القرن. (٢) الصرم : القطيعة والفراق.

(٣) الصردان جمع صرد وهو طائر ايقع أبيض البطن يتشام به.

(٤) شطت : بعدت (٥) أليح : أعيان من الهموم.

تغلغل حب عثمة في فؤادي  
 فباديه مع الخاقى يسير  
 تغلغل حيث لم يبلغ شراب  
 ولا حزن ولم يبلغ سرور  
 صدعت<sup>(١)</sup> القلب ثم ذررت<sup>(٢)</sup> فيه  
 هواك فليم والتأم الفطور<sup>(٣)</sup>  
 أكاد إذا ذكرت العهد منها  
 أطيرو لو ان إنسانا يطير  
 غنى النفس أن ازداد حبيبا  
 ولكنى إلى صلة فقير  
 وأنفذ جارحاك<sup>(٤)</sup> سواد قلبي  
 فأنت على ما عشنا أمير<sup>(٥)</sup>  
 وقد تغنى بهذا الشعر المغنون فى عهده  
 وقد أورد صاحب الأغانى بعض المقطعات التى أنشدها  
 عبيدالله فى زوجته عثمة بعد فراقهما، وتغنى بها المغنون ومنها:  
 كتمت هواها حتى أضر بك الكتم  
 ولامك أقوام ولومهم ظلم  
 ألا من لنفس لا تموت فينقضى  
 عناها ولا تحيا حياة لها طعم  
 أترك إتيان الحبيب تأثما  
 ألا إن هجران الحبيب هو الإثم  
 فذق هجرها قد كنت تزعم أنه  
 رشاد، ألا ياربُّما كذب الزعم

(١) صدعت : شقت.

(٢) ذررت : تشرت مثل الريح تذر التراب هنا وهناك.

(٤) جارحاك : عينك

(٣) الفطور : الشقوق

(٥) الأغانى ج ٩ ص ١٥١.



ومما غنى له أيضا :

عفت أطلال عثمة بالغميم  
فأضحت وهي موحشة الرسوم  
وقد كُتبا نحلُّ بها وفيها  
هضيم الكشح جائلة اليريم<sup>(١)</sup>  
وكذلك مما غنى به من شعره قوله أيضا في عثمة بعد  
فراقهما:

إن يك ذا الدهر قد أضربنا  
من غير نحلُّ فربما نفعنا  
أبكى على ذلك الزمان ولا  
أحسب شيئا قد فات مرتجعا  
إذ نحن في ظل نعومة سلفت  
كانت لها كل نعومة تبعنا

وسار هذا الشعر وانتشر عن عبيد الله وبخاصة بعدما تغنى  
به المغنون، وتناقل الناس ما يعانیه من لوعة الصبابة، وعهدهم  
بمثل هذا أن يؤثر عن الغزليين من فتيان الشعراء، فما بالك  
بأحد فقهاء المدينة السبعة، فلما عوتب في إثار هذا اللون من  
القول عنه، وقيل له : أتقول مثل هذا ؟

أجاب : في اللود راحة المفتود.

لعبيد الله شعر في الحكمة والفخر بأرومته ذكر صاحب  
الأغاني جانبا منه، ومما سجله له من الشعر الذي يجري مجرى  
المثل وقال عنه صاحب الأغاني إنه من الشعر الجيد الفحل  
قوله :

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٥٠. واليريم هو الخلال

إذا كان لي سرٌّ فحدثته العدا  
 وضاق به صدري فللناس أعذر  
 وسرك ما استودعته وكتمته  
 وليس بسُّر حين يفشوا ويظهر  
 وقوله لابن شهاب الزهري :  
 إذا قلت أما بعد لم يُثنَ منطقي  
 فحاذر إذا ما قلت كيف أقول  
 إذا شئت أن تلقى خليلاً مصافياً  
 لقبيت وإخوان الثقات قليل  
 ومما قال عنه صاحب الأغاني إنه من جيد شعره وسهله قوله:  
 أعاذل عاجل ما أشتى  
 أحبُّ من الأجل الرائيث<sup>(١)</sup>  
 سأنفق مالى على لذتى  
 وأوثر نفسي على الوارث  
 أبادر إهلاك مستهلك  
 لمالى أو عيب العايث  
 ومما قاله مفتخراً بأخلاقه، وكتمانه أسرار أصحابه واعتزازه  
 بآبائه :

شدت حيازيمي<sup>(٢)</sup> على قلب حازم  
 كتوم لما ضُمَّت عليه أضالعه  
 أداجي<sup>(٣)</sup> رجالا لست مطلع بعضهم  
 على سرِّ بعض إن صدري واسع

(٢) حيازيمي جمع حيزوم وهو المصدر.

(١) الرائيث : البطل.

(٣) اداجي : اداري .

بنى لى عبیدالله فى ذروة العلاء  
وعتبه مجدا لاتنال مصانعه  
وكان يعجبه أن يسمع ثناء على شعره واستحسانا لقوله  
وهو وإن كان أحد الفقهاء السبعة إلا أن الملكة الشعرية كانت  
أظهر، وكان يعجبه أن يتغنى الناس بشعره ويرددوه وقد التقى  
به أحد الشعراء المعاصرين له ويسمى جامع بن مرخية فأنشده  
ثلاثة أبيات قال فيها :

لعمر أبى المُحصين أيام نلتقى  
لما لا نلاقياها من الدهر أكثر  
يعدون يوما واحدا إن أتيتها  
وينسون ما كانت على الدهر تهجر  
وإن أولع الواشون عمدا بوصلنا  
فنحن بتجديد المودة أبصر  
فأعجب ابن مرخية ما قال عبیدالله وهو من شعراء الحجاز  
وهو الذى يقول :

سألت سعيد بن المسيب مفتى الـ  
مدينة هل فى جب ظمياء من وزر  
فقال سعيد بن المسيب إنما  
تلام على ما تستطيع من الأمر  
فلما بلغ قوله سعيدا قال : كذب، والله ما سالنى ولا افتيته<sup>(١)</sup>.

بصره بالغنون :

كان عبیدالله رجلا ذا ذوق شاعرى، وكان يطرب للحن  
الجميل، والصوت الأسر، وكان له إلمام بالموسيقى لأنها صنو

(١) راجع الاغانى ج ٩ من ١٤٦ - ١٤٧.

الشعر وما الشعر إلا موسيقى سرت في الألفاظ فتغلغت في المشاعر والأحاسيس وكان عبداً لله مثل غيره من الفقهاء المشهورين، والعلماء الذين لهم قدم راسخة في حقل الشرع، وعرفوا باستقامة الدين، ونقاء الفطرة، وسماحة الخلق، وسعة الأفق في معالجة الأمور لا يضيرهم أن يلماوا بألوان من الفنون كالشعر والموسيقى، وما إلى ذلك .

وكان أهل المدينة معروفين برقة الطبع، وحلاوة المزاج، وحسن الأدب عند الاستماع، والاهتزاز للقول الجميل، والصوت الشجي حتى روى عن عبداً لله بن جعفر أنه قال : إن لي عند السماع هزة لو سئلت عندها لأعطيت، ولو قاتلت لأبليت. وأخبره في هذا المجال لا حصر لها، وهي مبنوثة في كتب الأخبار والأدب.

وقد روى صاحب العقد الفريد عن الأصمعي أنه مرّ بدار الزبير بالبصرة فإذا شيخ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبا ریحانة جالس بالباب عليه شملة تستره، يقول الأصمعي فسلمت عليه وجلست إليه. فبينما أنا كذلك إذ طلعت علينا سويداء تحمل قربة، فلما نظر إليها لم يتمالك أن قام إليها.

فقال لها : بالله غنى صوتا.

فقلت : إن موالى أعجلونى

قال : لا بدّ من ذلك.

قالت : أما والقربة على كتفى فلا.

قال : فأنا أحملها. فأخذ القربة منها، فاندفعت تغنى :

فؤادى أسير لا يفكّ ومهجتي

تفيض وأحزاني عليك تطول

ولى مقلة قرحى لطول اشتياقها  
إليك وأجفانى عليك همسول  
فديتك أعدائى كثير وشقتى  
بعيد وأشيامى لديدك قليل  
فطرب وصرخ وصرخة، وضرب بالقربة إلى الأرض فشقتها،  
فقامت الجارية تبكى، وقالت : ما هذا جزائى منك، اسعفتك  
بحاجتك فعرضتني لما أكره من موالى.  
قال : لا تغتمى، فإن المصيبة علىّ حصلت، ونزع الشملة،  
ووضع يدا من خلف ويذا من قدام، وباع الشملة، وابتاع لها  
قربة جديدة، وقعد بتلك الحال.

فاجتاز به رجل من ولد على بن أبى طالب رضى الله تعالى  
عنه، فعرف حاله، فقال : يا أبا ریحانة، أحسبك من الذين قال الله  
تعالى فيهم : ﴿ فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ ﴾ (١).  
قال : لا، يا ابن بنت رسول الله، ولكن من الذين قال الله  
تعالى فيهم : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ  
أَحْسَنَهُ ﴾ (٢).

فضحك، وأمر له بالف درهم (٣).

وتروى كتب الأخبار أن عددا من أعلام العلماء المشهورين  
لم يكونوا يستتكفون أن يكون لهم معرفة بأصول النغم  
والضرب على الآلات. وقصة الشعبي، فى مجلس بشر بن  
مروان، وهو يوجه أحد العازفين أن يشد أوتاره، ويحكم الضرب  
قصة مستفيضة ومن هذا القبيل ما يبدر أن عبيد الله كان على

(١) سورة البقرة الآية ١٦. (٢) سورة الزمر آية ١٧ - ١٨.

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ٢١٤ - ٢١٥، جمع الجواهر ص ٤٠.

علم بأدوات الموسيقى وآلات الطرب، فقد ذكر اسم «البربط» في مجلس يزيد بن عبدالمك، فتساءل يزيد ليت شعري ما هو ؟ وكان عبيدالله حاضرا، فأجاب أنا أخبرك ما هو، ثم أخذ في وصفه وصف الخبير به، وبمحتوياته، ودقائق أجزائه، وكان مما قال : هو محدودب الظهر، أرسح البطن له أربعة أوتار، إذا حركت لم يسمعا أحد إلا حرك أعطافه وهز رأسه<sup>(١)</sup>.  
**شيخوخته ووفاته :**

كان عبيدالله قد أصيب بعينه في أخريات حياته كما مر بنا، ويبدو أن هذه الفترة التي فقد فيها بصره كانت شديدة الوقع على نفسه، إذ كانت حساسيته المفرطة تجعله يستشعر أن إخوة الأمس، قد ضيعوا حق الأخوة بعدما امتد به العمر، وفقد نور البصر، واختلف في وفاته رحمه الله بين سنوات ٩٤، ٩٥، ٩٨، ٩٩ هـ فرحمه الله رحمة واسعة.

وجولتنا مع عبيدالله قد غلب عليها حديث الشعر والعلاقات التي كانت تتجاذبها حالات الرضى والغضب مع محبيه وعارفي فضله.

ولكننا لم نجد مواقف فقهية معينة تفرد بها عن سواه حتى عدّ من الفقهاء السبعة، ويبدو أن سبب ذلك أن الأحكام كانت تصدر عن مجمع الفقهاء الذي كان يستشيره عمر بن عبدالعزيز وأن ما كان يغلب على عبيدالله من الشاعرية قد استأثر بانتباه المؤرخين وأصحاب الأدب فسجلوا له هذا اللون الذي تميز به عن زملائه الفقهاء فرحمه الله وأجزل مثوبته.

(١) راجع العلماء بين التزم والتسامح للمؤلف.

# الفلاسفة بن محمد

(٤١٠٨)





أحد فقهاء المدينة ، كان ثقة عالما فقيها رقيقا ، إماما ورعا كثير الحديث ، ويبدو أنه كان عازفا عن الإمامة في الدين والرياسة في الفتيا ، على الرغم من سعة علمه ، وعمق فقهه ، وشدة ورعه ، واتباعه للسنة .

وكان رجلا سمحا ، لا يرضى بأن يصل ما بينه وبين أحد إلى درجة الخصومة ؛ ولهذا كان يتنازل عن حقه رغبة في حسن الصلة بينه وبين الناس .

قال عنه مالك بن أنس : « كان القاسم قليل الحديث<sup>(١)</sup> ، قليل الفتيا وكان يكون بينه وبين الرجل المماراة في الشيء ، فيقول له القاسم : هذا الذي تريد أن تخاصمنى فيه هولك ، فإن كان حقا فهو لك فخذهُ ، ولا تصمدنى فيه ، وإن كان لى فأنت منه فى حلٌ وهو لك<sup>(٢)</sup> .

وقد بلغ من حسن مسلكه ، وسلامة هديه ، واستقامة طريقه أن رجلا كابن سيرين كان يبعث من يتبعه فى الحج ليخبره بهديه حتى يقتدى به .

وقد كان علمه بالسنة مثار إعجاب العلماء ، حتى قال أبو الزناد: ما رأيت أحدا أعلم بالسنة من القاسم بن محمد ، وما كان الرجل يعد رجلا حتى يعرف السنة .

وكان راجح العقل ، قوى الحجّة ، ثاقب الذهن ، وفيه يقول أبو الزناد أيضا : ما رأيت أحداً ذهنا من القاسم ، إن كان يضحك من أصحاب الشبه كما يضحك الفتى<sup>(٣)</sup> .

(١) يقصد قليل الكلام . (٢) سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٥٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٥٦ .

وقد أخذ علمه وفقهه عن عمته أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها . وعن حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وأخذ عن ابن عمر العلم والورع وعن أبي هريرة الرواية عن رسول الله ﷺ ، وفي ذلك يقول : كانت عائشة قد استقلت بالفتوى في خلافة أبي بكر وعمر وإلى أن ماتت ، وكنت ملازما لها مع ترهاتي ، وكنت أجالس البحر ابن عباس ، وقد جلست مع أبي هريرة ، وابن عمر ، فأكثررت ، فكان هناك ورع وعلم جم ، ووقوف عما لا علم له به<sup>(١)</sup> .

وكان يدرك مدى ما عنده من علم إلا أنه كان يتواضع ، فلا يريد أن يشير الناس إليه خشية الفتنة ، وكان يحب التثبث في كل أمره ، وقد أثر عنه قوله : لأن يعيش الرجل جاهلا بعد أن يعرف حق الله عليه خير له من أن يقول ما لا يعلم .  
ومن هديه أنه لم يكن يجيب إلا في أمر بَيِّن ظاهر ، وقد قصده أحد أمراء المدينة يسأله عن أمر من الأمور ، فلم يستنكف أن يعلن عدم معرفته بما يسأل عنه ، وكان يقول : إن من إكرام المرء نفسه ألا يقول إلا ما أحاط به علمه .  
وجاءه أعرابي ، وهو يصلي ، فسأله : أيما أعلم ، أنت أم سالم؟

فقال : سبحان الله ، كل سيخبرك بما علم .

فقال : أيكما أعلم ؟

قال : سبحان الله .

فأعاد فقال : ذاك سالم فانطلق إليه فسله .

فقام عنه ، ويعلق ابن إسحاق على هذا الخبر ، فيقول : كره

(١) سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٥٥ .

أن يقول : أنا أعلم فيكون تزكية ، وكره أن يقول : سالم أعلم مني فيكذب ، وكان القاسم أعلمهما<sup>(١)</sup> .

وكان للقاسم مجلس في مسجد رسول الله ﷺ ، وكان من عادته أن يأتي من بيته إلى المسجد في أول النهار ، فيصلي ركعتين ، ثم يجلس إلى الناس فيسألونه .

ولما تقدمت به السن وجاء موسم الحج كان يركب من منزله حتى يأتي مسجد منى فينزل عند المسجد ، فيمشى من عند المسجد إلى الجمار فيرميها ماشيا ، ثم يرجع إلى المسجد ماشيا ، فإذا جاء المسجد ركب<sup>(٢)</sup> .

وأبوه محمد بن أبي بكر رضى الله عنه ، وأمه ابنة يزيدجرد ملك الفرس ، وهو وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعلى زين العابدين بن الحسين بن علي رضى الله عنهم ، أجمعين أبناء خالة .

وذلك أنه لما أتى بسبى فارس إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان في السبى ثلاث بنات ليزدجرد ، فزوج على أولاهن لعبد الله بن عمر والثانية محمد بن القاسم والثالثة لحسين بن علي فأنجبت كل واحدة منهن أحد الفقهاء الأعلام ، فسالم بن عبد الله والقاسم بن محمد ، وعلى زين العابدين أبناء خالة وأمهاتهم بنات الملوك<sup>(٣)</sup> .

وكان العرب لا يستريحون لأبناء غير العربيات قبل أن ينشأ هؤلاء الأعلام ، ومما يذكر في ذلك أن رجلا من قریش قال :

(١) راجع وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٥٩ .

(٢) راجع في كل ما سبق الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٥ ص ١٨٧ - ١٩٠ - طبع دار صادر بيروت .

(٣) راجع وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٦٧ تحقيق د. إحسان عباس .

كنت أجالس سعيد بن المسيَّب ، فقال لى يوما ، من أخوالك ؟  
 فقلت له : أمى فتاة ، فكأنى نقصت فى عينه ، فأمهلت حتى  
 دخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ؛  
 فلما خرج من عنده ، قلت : يا عم ، من هذا ؟  
 فقال : سبحان الله ، أتجهل مثل هذا من قومك ؟ هذا سالم بن  
 عبد الله بن عمر بن الخطاب .

قلت : فمن أمه ؟

قال : فتاة .

قال : ثم أتى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى  
 الله عنه فجلس عنده ، ثم نهض ، قلت : يا عم ، من هذا ؟  
 فقال : أتجهل من أصلك مثله ؟ ما أعجب هذا ، هذا القاسم  
 ابن محمد بن أبى بكر الصديق .

قلت : فمن أمه ؟

قال : فتاة .

قال : فأمهلت شيئا ، حتى جاء على بن الحسين بن على بن  
 أبى طالب رضى الله عنه ، فسلم عليه ثم نهض .

فقلت : يا عم ، من هذا ؟

قال : هذا الذى لا يسع مسلما أن يجهله ، هذا على بن  
 الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

فقلت : من أمه ؟

قال : فتاة .

فقلت : يا عم ، رأيتنى نقصت فى عينك لما علمت أن أمى  
 فتاة ، أقما لى فى هؤلاء أسوة ؟  
 قال : فجالت فى عينه جدا<sup>(١)</sup> .

(١) راجع وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

**عظته لعمر بن عبد العزيز :**

كان القاسم مثل فقهاء المدينة وثيق الصلة بعمر بن عبد العزيز حتى قبل أن يكون واليا على المدينة ، لأنه كان يطلب العلم بالمدينة فتعرف على علمائها وفقهائها ، ولما مات عمه عبدالملك بن مروان اشتد حزنه عليه وأسفه على فراقه ؛ لأنه كان يخصه بعطفه ورعايته وبخاصة بعد موت أبيه عبد العزيز ، ومن مظاهر إعزاز عبد الملك لابن أخيه عمر أنه زوجه بابنته فاطمة ، ولما أبصر القاسم بن محمد اشتداد الحزن بعمر لفقد عمه حتى إنه ترك ما كان فيه من تنعم فى الملبس ، واستشعر الموت ، واستمر على ذلك سبعين ليلة ، أراد القاسم أن يخرج من هذه الحالة التى رآه عليها ، وهو يعلم عنه التقوى والصلاح والتأسى بالصالحين فقال له : « أعلمت أن من مضى من سلفنا كانوا يحبون استقبال المصائب بالتجمل ، ومواجهة النعم بالتذلل » فما كان من عمر إثر سماعه هذا من القاسم إلا أن خرج من هذه الحال ، وبدا فى ملابس من حبرات اليمن ، يقول الرواة إن ثمنها ثمانمائة دينار<sup>(١)</sup> .

**كان لا يفتنى إلا بما يعلم :**

كان إذا توجه إلى الحج ، ونزل بمنى ، وعرف الناس مكانه اتجهوا إليه يسألونه عن بعض الأمور ، وكان لا يرى غضاضة إذا سئل عن أمر لا يعرفه أن يقول : لا أدري فقد روى حماد بن زيد عن أيوب قال : سمعت القاسم يسأل بِمَنَى ، فيقول : لا أدري ، لا أعلم .

فلما أكثروا عليه قال : والله ما نعلم كل ما تسألون عنه ، ولو علمنا ما كتمناكم ، ولا حل لنا أن نكتمكم<sup>(٢)</sup> .

(١) حلية الأولياء ج ٢ ص ١٨٢ . (٢) حلية الأولياء ج ٢ ص ١٨٤ .

كان يحدث عن الساتلين عن المتشابهات :

فقد روى عن عمته عائشة رضي الله تعالى عنها : أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١).

فقال النبي ﷺ : « إذا رأيتم الذين يسألون عما تشابه منه فهم أولئك الذين سماهم الله ، فاحذروهم » (٢) ، ومما رواه القاسم عن عمته عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي ﷺ : « أتدرون من السابقون إلى ظل الله عز وجل ؟ قالوا : الله عز وجل ورسوله أعلم. قال : الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » (٣) .

وكان القاسم يعيش حياة أقرب إلى الترف والتنعيم شأنه في ذلك شأن فقهاء المدينة ، وكانما أرادوا أن يقولوا للناس بلسان الحال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٤) .

وهذا أمر متوقع من رجل أمه ابنة ملك فارس ، فقد قال العلاء بن زبير دخلت على القاسم بن محمد ، وهو في قبة معصفرة ، وتحت فراش معصفر ، ومرافق حمر ، فقلت :

(١) آل عمران آية ٨ . (٢) حلية الأولياء ج ٢ ص ١٨٥ . (٣) حلية الأولياء ج ٢ ص ١٨٧ . (٤) الاعراف الآية ٣٢ .

يا أبا عبدالرحمن ، هذا مما أردت أن أسألك عنه . قال : لا بأس مما امتهن منه . وقال عيسى بن حفص : رأيت القاسم بن محمد يلبس الخزَّ ورأيت عليه ملحفة<sup>(١)</sup> معصفرة .

ولما تقدمت السن بالقاسم بن محمد فقد بصره ، ولكن ذلك لم يؤثر في منهجه واجتهاده في عبادته ، ولما حضرته الوفاة ، وكان بمكان يسمى القديد بين مكة والمدينة ، وكان سفره هذا للحج أو للعمرة شك الرواة في ذلك ، فأوصى ابنه قائلاً : سنَّ على التراب سنا ، وسوَّ عليَّ قبري ، والحق بأهلك ، وإياك أن تقول كان وكان<sup>(٢)</sup> .

وكان مما تقدم به لابنه بالنسبة لكفنه قوله : كفنوني في ثيابي التي كنت أصلى فيها ، قميصي وإزارى وردائى ، فقال ابنه : يا أبت لا تريد ثوبين ؟ قال : يا بنى هكذا كفن أبو بكر في ثلاثة أثواب ، والحي أحوج إلى الجديد من الميت<sup>(٣)</sup> .

رحم الله القاسم بن محمد فقد كان نموذجاً فريداً في السماحة والفقہ والتواضع ، والعفاف .

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته فبعضهم يذكر أنه توفي سنة إحدى ومائة أو اثنتين ومائة أو سنة ثمان ومائة أو اثنتى عشرة ومائة، ولكن الأرجح أن وفاته كانت سنة ثمان ومائة. وكانت سنة عند وفاته ثلاثاً وسبعين سنة أو سبعين حسب اختلاف الروايات في تاريخ وفاته رحمه الله وأحسن مثوبته .

(١) الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٩٢ ، وسير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٦٠ .

(٢) حلية الأولياء ج ٢ ص ١٨٤ . (٣) الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٩٢ .





# خارجة بن زيد

(٥١٠)



أحد فقهاء المدينة الذين دعاهم عمر بن العزيز لما ولى إمرة المدينة ، وطلب إليهم أن يقدموا له النصيحة ، فيما يعرض له من أمور الفتيا والقضاء .

أبوه زيد كاتب الوحي لرسول الله ﷺ ، والذي أشرف على كتابة المصحف فى أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وفى أيام عثمان رضى الله عنه كان على رأس اللجنة التى وكل إليها كتابة المصحف .

ورث خارجه علم أبيه ، وقد أجمعت كلمة علماء الرجال على توثيقه والثناء عليه ، وكان هو وطلحة بن عبيد الله بن عوف فى زمنهما يستفتيان ، وينتهى الناس إلى قولهما ، ويقسمان المواريث بين أهل المدينة من الدور والنخل ، والأموال ، ويكتبان الوثائق للناس<sup>(١)</sup> .

وكان عمر بن عبد العزيز يعرف له قدره ومكانته ، ويبدو أن حقه فى الديوان كان قد قطع عنه ، وقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز أن يعطى خارجه ما قطع عنه من الديوان ، فقال : لا يسع المال ذلك ، ولو وسعه لفعلت<sup>(٢)</sup> ، ويبدو أن ذلك كان بعد أن ولى عمر إمارة المؤمنين ، يدل على ذلك ما جاء فى سير أعلام النبلاء من أن خارجه مشى إلى أبى بكر بن حزم وكان والى عمر على المدينة ، فقال له : إنى أكره أن يلزم أمير المؤمنين من هذا مقالة ، ولى نظراء ، فإن عمهم أمير المؤمنين بهذا فعلت ، وإن هو

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٤٣٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٤٣٨ .

خصنى به ، فإننى أكره ذلك له . ولعل عمر كان مستعداً أن يعطى خارجة ما قطع عنه ، فلما طلب خارجة أن يكون ذلك عاماً لكل من قطع عنهم نصيبهم من الديوان كان ذلك سبباً فى اعتذار عمر ، وقد بين السبب فى قوله : « لا يسع المال ذلك ، ولو وسعه لفعلت » .

ولعل القارىء يتساءل لماذا قطع عن خارجة وسواه نصيبهم من الديوان ، ويبدو أن ذلك قد حصل بعد ثورة أهل المدينة أيام يزيد .

وقد كان خارجة رحمه الله يتمتع بمكانة أثيرة لدى عمر بن عبدالعزيز ، بدليل أنه اختاره ليكون من الفقهاء الذين يستشيرهم ، ولما أخبر عمر بوفاة خارجة وكان ذلك عام ٩٩ أو ١٠٠ على اختلاف بين الروايات ، بدا عليه الحزن لفقده ، واسترجع ، وضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو تصرف يقع من الإنسان لما يفاجأ بأمر غير متوقع وعلق عمر على الخبر قائلاً : « ثلثة والله فى الإسلام » .

وقد روى عن عدد من الصحابة غير أبيه ، منهم عمه يزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وسهل بن سعد ، وعبدالرحمن بن أبى عمرة ، وأمهم أم سعد بنت الربيع ، وأم العلاء الأنصارية . وأخذ العلم عنه عدد من العلماء أشهرهم محمد بن شهاب الزهرى ، وأبو الزناد .

وفهم من الروايات التى تحدثت عنه أنه كان حسن المنظر ، أنيق الهيئة ، فقد قال زيد بن السائب : رأيت خارجة بن زيد يلبس كساء خز ، ورأيته يلبس ملحفة معصفرة ، ورأيته يعتم بعمامة

بيضاء ، وقال فى موضع آخر : كان حسن الجسم .  
وقد عرفنا أن أباه زيد بن ثابت كان فى حالة رافهة ، ولاشك  
أن جانبا كبيرا من مال أبيه قد آل إليه ، لأن أغلب إخوته كانوا قد  
قتلوا يوم الحرة ، ولهذا كان أمرا بدهيا أن يبدو عليه آثار النعمة  
والثراء فى ملبسه ومظهره ، وكانت تلك سمة فقهاء المدينة عامة .  
وكان له ثمانية من الأولاد أربعة منهم بنون ، وهم زيد وعمرو ،  
وعبد الله ومحمد ، وكان يكنى أبا زيد وقد عاش خارجة سبعين  
سنة ، وقد روى عنه سنة وفاته أنه قال : رأيت فى المنام كائى  
بنيت سبعين درجة ، فلما فرغت منها تهورت ، وهذه السنة لى  
سبعون سنة قد أكملتها<sup>(١)</sup> .

وكانت وفاته فى خلافة عمر بن عبد العزيز عام ٩٩ أو عام  
١٠٠ للهجرة على خلاف بين المؤرخين ، وصلى عليه أبو بكر بن  
محمد بن عمرو بن حزم والى المدينة .

وقد روى عن عمه يزيد بن ثابت حديثا قال : خرجنا مع رسول  
الله ﷺ إلى البقيع ، فرأى قبرا حديثا ، فقال : ما هذا القبر ؟  
قالوا : قبر فلانة مولاة فلان ، ماتت ظهرا ، وأنت قائل<sup>(٢)</sup>  
فكرهنا أن نوقظك ، فقام فصفنا خلفه ، وكبر عليها أربعا ، ثم قال :  
لا يموتن أحد مادمت بين أظهركم ، ألا آذنتمونى ، فإن صلاتى  
رحمة .

ووقعت حادثة قتل بالمدينة أيام معاوية ، ولم يكن هناك  
شهود ، ويبدو أن المقتول كان يمت بصلة قرابة إلى خارجة ،  
وكانت هناك دلائل تشير إلى القاتل ، ولكنها لم تبلغ مبلغ اليقين ،

(١) الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٢٦٢ . (٢) يعنى مستريحا وقت القبلولة .

واجتمع رأى الناس أن يحلف ولاية المقتول ، ويسلم إليهم القاتل فيقتلوه ، وهذه الحالة تعرف فى الفقه الإسلامى بالقسامة إذا كانت هناك تهمة ، ولم تكن هناك أدلة قاطعة على القاتل ، حينئذ يحلف ولاية المقتول خمسين يمينا ، ثم يسلم إليهم القاتل ليقتل .

وفى هذه الحالة التى بين أيدينا ، تقول الرواية حولها إن أحد أهل المدينة سكر ، وضرب رجلا بالسيف حتى قتله ، وكان والى المدينة سعيد بن العاص ، والخليفة معاوية فى دمشق ، فركب خارجة فى جماعة من أهل القتيلى إلى معاوية ، فقصوا عليه القصة ، فكتب إلى سعيد بن العاص : إن كان ما ذكر حقا فليحلف أهل القتيلى على القاتل ثم يسلم إليهم .

فلما تسلم سعيد كتاب معاوية ، قال : أنا منفذ كتاب أمير المؤمنين ، فاعدوا على بركة الله - يقول خارجة - فغدونا عليه فأسلمنا إياه سعيد بعد أن حلفنا خمسين يمينا<sup>(١)</sup> .

وفهم من سياق الرواية أن سعيدا كان متوقفا فى الأخذ بالقسامة فى هذا الموقف ، ويدعوننا ذلك أن نذكر بالتفصيل حكم القسامة وصورتها ورأى العلماء فيها ، أما القسامة فصورتها أن يوجد قتيل فى مكان ولا يعرف قاتله ، وهناك بعض الشواهد غير القاطعة تشير بإصبع الاتهام إلى جماعة أو قبيلة أو أهل بلد ما عند ذلك يختار ولى المقتول خمسين رجلا ممن حامت حولهم شبهات القتل ليحلفوا بالله أنهم ما قتلوه ، ولا علموا له قاتلا فإن حلفوا سقطت عنهم الدية ، وإن أبوا وجبت ديته عليهم وإن التبس الأمر تحمل ديته بيت المال .

(١) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٢٧ ، ٢٨ .

والصورة التي ذكرها الفقهاء للقسامة تجعل الشبهة متجهة نحو جماعة لا نحو شخص بذاته ، وأن المطالب بالقسم من تتجه التهمة إليهم ، أما الحالة التي أمامنا فإن الاتهام فيها موجه نحو شخص بذاته ، وأن الذين أقسموا هم أهل القتل ، ولعل ذلك كان سبب توقف سعيد بن العاص حتى جاءه كتاب معاوية .

أما حكمها فقد اختلف العلماء في وجوب الحكم بها ، حيث قال بوجوب الحكم بها جمهور العلماء ، وذهب آخرون إلى عدم جواز الحكم بها والذين ذهبوا إلى وجوب الحكم بها استندوا إلى ما ثبت عنه ﷺ في حديث حويصة ومحبيصة ، وفيه سأل رسول الله ﷺ أهل المقتول وكانوا من الأنصار - أتخلفون خمسين يمينا ؟

قالوا : كيف نحلف ، ولم نشاهد ؟

قال : فيحلف لكم اليهود - وكانوا بهم الذين تحوم حولهم الشبهة.

قالوا : كيف نقبل إيمان قوم كفار ؟

أما القاتلون بعدم جواز الحكم بها ؛ لأنها مخالفة لأصول الشرع المجمع على صحتها ، وذلك أن الأصل في الشرع أن لا يحلف أحد إلا على ما علم يقينا أو شاهد حسا ، وإذا كان ذلك كذلك فكيف يقسم أولياء الدم ، وهم لم يشاهدوا القتل<sup>(١)</sup> .

وقد ردوا على استشهاد الفريق الأول بالحديث السابق بأن القسامة حكم جاهلي ، وأن رسول الله ﷺ تطف معهم ليريهم أنه لا يلزم الحكم بها حسب أصول الإسلام ولو كانت السنة أن

(١) انظر فقه السنة ج ٢ ص ٥٨٦ .

يخلفوا ولم يشهدوا لقال لهم رسول الله ﷺ : هي السنة ، وهو لم يقل ، وما دام هذا الأثر ليس نصا فى القضاء بالقسامة والتأويل يتطرق إليه ، فمن الأولى أن تحمل على الأصول الأولى .  
ولما كان الرأى حول القسامة منقسما فقد استمر يشغل بال العلماء والباحثين وذوى الرأى حتى زمن عمر بن عبد العزيز الذى كان يرى فيما يبدو عدم جواز الحكم بالقسامة ، فقد روى البخارى عن أبى قلابة أن عمر بن عبدالعزيز أبرز سريره يوما للناس ، ثم أذن لهم ، فدخلوا عليه ، فقال : ما تقولون فى القسامة؟

فأضرب القوم ، وقالوا : نقول : إن القسامة القود بها حق ، قد أقاد به الخلفاء .

فقال : ما تقول يا أبا قلابة ؟ ونصبنى للناس .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، عندك أشراف العرب ، ورؤساء الأجناد أرايت لو أن خمسين رجلا شهدوا على رجل ، أنه زنى بدمشق ولم يروه أكنت ترجمه ؟  
قال : لا .

قلت : أفرأيت لو أن خمسين رجلا شهدوا على رجل أنه سرق بحمص ، ولم يروه ، أكنت تقطعه ؟  
قال : لا .

وفى بعض الروايات : قلت : فما بهم إذا شهدوا أنه قتله بأرض كذا ، وهم عندك ، أقدت بشهادتهم .

قال : فكتب عمر بن عبد العزيز فى القسامة ، أنهم إن أقاموا شاهدى عدل ، أن فلانا قتله فأفده ، ولا يقتل بشهادة الخمسين



الذين أقسموا ومن السهل أن نستشف من هذا الحوار الذي أجراه عمر بن عبدالعزيز مع أبي قلابة على ملا من الناس أنه لا يرى جواز الحكم بالقسامة .

### أصل القسامة :

كانت القسامة معمولا بها في الجاهلية قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أقرها على ما كانت عليه كما يرى فريق العلماء الذي يحكم بها ويرون أن الحكمة من إقرارها الحفاظ لحماية للنفس وعدم ضياع دم القتلى هدرا ، وقد روى البخاري والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أول قسامة كانت في الجاهلية كانت بسبب رجل من بنى هاشم ، استأجره رجل من قريش من فخذ أخرى ، فانطلق معه في إبله ، فمر به رجل من بنى هاشم ، قد انقطعت عروة جوالقه ، فقال : أغثنى بعقال أشدّ به عروة جوالقي ، لا تنفر الإبل ، فأعطاه عقالا ، فشد به عروة جوالقه .

فلما نزلوا ، عقلت الإبل إلا بغيرا واحدا ، فقال الذي استأجره ، ما بال هذا البعير لم يعقل من بين الإبل ؟  
قال : ليس له عقال .

قال : فأين عقاله ؟ فحذفه بحصى كان فيه أجله ، فمرّ به رجل من أهل اليمن .

فقال له : أتشهد الموسم .

قال : ما أشهده ، وربما شهدته .

قال : هل أنت مبلغ عنى رسالة ، مرة من الدهر ؟!

قال : نعم .

قال : فإذا شهدت ، فناد : يا قريش ، فإذا أجابوك ، فناد :

يا آل بنى هاشم ، فإن أجابوك ، فسل عن أبي طالب ، فأخبره أن  
فلانا قتلنى فى عقال .

ومات المستأجر .

فلما قدم الذى استأجره ، أتاه أبو طالب .

فقال : ما فعل صاحبنا ؟

قال : مرض فأحسنتم القيام عليه ، ووليت دفنه .

قال : لقد كان أهل ذاك منك .

فمكث حيناً ، ثم إن الرجل الذى أوصى إليه ، أن يبلغ عنه وافى

الموسم .

فقال : يا قريش .

قالوا : هذه قريش .

قال : يا آل بنى هاشم .

قالوا : هذه بنو هاشم .

قال : أين أبو طالب ؟

قالوا : هذا أبو طالب ؟

قال : أمرنى فلان أن أبلغك رسالة ، أن فلانا قتله فى عقال

فأتاه أبو طالب ؛ فقال : اختر منا إحدى ثلاث ؛ إن شئت أن تؤدى

مائة من الإبل ، فإنك قتلت صاحبنا ، وإن شئت حلف خمسون من

قومك أنك لم تقتله ، فإن أبييت قتلناك به فأتى قومه فأخبرهم .

فقالوا : نحلف .

فأتته امرأة من بنى هاشم كانت تحت رجل منهم ، كانت قد

ولدت منه ، فقالت :

يا أبا طالب : أحب أن يجبر ابنى هذا برجل من الخسمين ،

ولا تصير يمينه حيث تصير الأيمان : ففعل .

فأتاه رجل منهم فقال : يا أبا طالب ، أردت خمسين رجلا أن يحلفوا مكان مائة من الإبل فيصيب كل رجل منهم بعيران ، هذان البعيران فاقبلهما منى ، ولا تصير يميني حيث تصير الأيمان ، فقبلهما ، وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا .  
قال ابن عباس رضى الله عنهما :  
فوالذى نفسى بيده ما حال الحول ، ومن الثمانية والأربعين عين تطرف<sup>(١)</sup> .

هذا هو أصل القسامة لما كانت معروفة فى الجاهلية ولذلك لما وقع حادث القتل فى المدينة واتهم الأنصار اليهود ، طلب إليهم أن يحلفوا فأبوا ، فقال يحلف اليهود فلم يرض الأنصار ، واتخذ المجيزون للحكم بالقسامة هذا الحديث أصلا ودليلا ، وأما المانعون فإنهم قالوا كما سبق إن ذلك كان تلطفا من النبى ﷺ ، ولو كان يريد الأخذ به لقال إنه السنة .

هذه قصة القسامة فى الجاهلية والإسلام التى حدثنا خارجه عنها ، والدور الذى قام به عند معاوية لما وقعت حادثة قتل أحد أهل المدينة ، أوردناها بالتفصيل رغبة فى إفادة القارئ شيئا قد يندر وقوفه عليه أو معرفته به ما لم يكن من المتخصصين .

أما خارجه فإن العلماء يشككون فى صحة روايته عن عمه يزيد، لأن عمه استشهد فى معركة اليمامة ومعركة اليمامة كانت أيام خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، ولم يكن خارجه قد ولد بعد ، لأن مولده كان إما عام ٢٨ ، ٢٩ هـ ، وقد سبق أنه توفى عن عمر بلغ السبعين وكانت وفاته عام ٩٩ أو ١٠٠ على خلاف بين

(١) راجع فقه السنة ج ٢ ص ٥٨٤ ، ٥٨٥ .

المؤرخين ولعل روايته عن عمه كانت بالواسطة ولم تكن مباشرة .

وكذلك اختلفت كلمة العلماء بالنسبة لإكثاره من الحديث ، فبينما يرى ابن سعد أنه كان كثير الحديث ، يذهب الذهبي في تذكرة الحفاظ أنه لم يرو عنه حديث كثير غير أنه لا خلاف على فقهه وثقته .

رحم الله خارجة وجزاه خير الجزاء .

سليمان بن يسار

(٥١٠٧)



كان أبوه يسار فارسيا مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها ، وكان سليمان عالما ثقة عابدا ورعا حجة ، وكان أخوه عطاء من العلماء أيضا إلا أن سليمان كان فيما يبدو أكثر فقها ومعرفة بالافتاء ، ولهذا كان أحد الفقهاء السبعة الذين كان يرجع إليهم عمر بن عبدالعزيز وقد روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة رضى الله عنهم ، وروى عنه جماعة من أكابر العلماء أظهرهم الزهري وكان موثوقا فى علمه من العلماء ، وموضع تقدير سعيد بن المسيب حتى إنه كان إذا جاءه من يسأل عن فتوى يقول له : اذهب إلى سليمان بن يسار ، فإنه أعلم من بقى اليوم وجاء ابن المسيب يوما رجل يسأله عن بعض الأحكام . فقال له : سألت أحدا غيرى ؟

قال : نعم .

قال : من هو ؟

قال : عطاء بن يسار وعطاء هذا أخو سليمان

قال : فما قال لك ؟

قال : كذا وكذا وأخبره عن الجواب ، وكان إجابته لم تلق قبولا عند ابن المسيب .

فقال للرجل : اذهب إلى سليمان بن يسار ، فسله ثم أخبرنى ما قال لك .

فتوجه الرجل إلى سليمان ، وسأله ، وتلقى الإجابة ، ولما أخبر سعيد بن المسيب ، قال : عطاء قاض ، وسليمان مفت<sup>(١)</sup> .

وكان البعض يرى أنه أفهم من سعيد .

وقد ولاه عمر بن عبد العزيز سوق المدينة<sup>(٢)</sup> لما كان واليا

(١) المعرفة والتاريخ ج ١ ص ٥٤٩ . (٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٧٥ .

عليها وكان سليمان رحمه الله كثير العبادة يصوم الدهر ، شديد الخشية لله والمراقبة له فى السر والعلن .

وكان حسن الهيئة جميل الوجه ، وقد جرد عليه جمال وجهه بعض المتاعب وعرضه لبعض الفتن التى عصمه الله منها لخشيته وتقواه فقد قام برحلة من المدينة إلى مكة هو ورفيق له ، ولما وصلا إلى الأبواء ضربا خيمة أقاما بها ، وذهب رفيقه إلى السوق يشتري بعض ما يحتاجون إليه ، وبصرت به أعرابية كانت تقيم بالجبل المطل على الخيمة ، فأخذ حسنه وجمال وجهه بلبها ، فأنحدرت إليه فى الخيمة ، وجلست بين يديه ، وأسفرت عن وجهها ، يقول راوى الخبر فبدأ كأنه فلقة قمر ، وتحدثت إليه ، فظن أنها تريد طعاما ، فقام إلى ما عنده من طعام ليعطيها إياه . فقالت: لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله .

فقال : جهزك إلى إبليس ، ثم وضع رأسه بين كفيه وأخذ يبكي وينتحب ، فلما رأت منه ذلك ، أسدلت برقعها على وجهها ، وانصرفت عائدة إلى خيمتها .

ولما عاد صاحبه ، وقد ابتاع ما يحتاجان إليه ، ورآه وقد انتفخت عيناه من البكاء ، وانقطع حلقه .

فقال له : ما يبكيك ؟

قال : خير .. ذكرت صبيتي .

قال : لا ، إن لك قصة ، إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها ، ولم يزل به حتى أخبره بشأن الأعرابية فوضع ما جاء به وانخرط فى بكاء حار ، ودهش سليمان من بكاء صاحبه .

وسأله : ما يبكيك ؟

قال : أنا أحق بالبكاء منك .

قال : فلم ؟



قال : لآنى آخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها .  
وقال راوى الخبر : فمازالا بيكيان .  
فلما انتهى سليمان إلى مكة ، وطاف وسعى ، أتى الحجر ،  
واحتبى بثوبه ، فنعس ، فإذا به يرى فى النوم : رجلا وسيما  
جميلا طويلا ، له شارة حسنة ، ورائحة طيبة .  
فسأله سليمان : من أنت رحمك الله ؟  
قال : أنا يوسف بن يعقوب .  
قال : يوسف الصديق ؟  
قال : نعم .  
قلت : إن فى شأنك وشأن امرأة العزيز لشأنا عجيبا .  
فقال له يوسف : شأنك وشأن صاحبة ، الأبواء أعجب<sup>(١)</sup> .  
وهذا الخبر يدل على ما كان يتمتع به سليمان بن يسار من عفة  
وأمانة وتقوى لله ومراعاة لحرماته وخشية منه .  
وكان شأن سليمان شأن الفقهاء فى عصره يبدو نظيف الثياب،  
حسن المظهر .  
وقد عاش سليمان ثلاثا وسبعين سنة وتوفى على أرجح  
الأقوال عام سبعة ومائة للهجرة .  
فرحمه الله وأجزل مثوبته .

(١) راجع حلية الأولياء ج ٢ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

## قائمة المراجع

- القرآن الكريم
- ١ - اختلاف الحديث
  - ٢ - الاغانى
  - ٣ - أنساب الاشراف
  - ٤ - البداية والنهاية
  - ٥ - البيان والتبيين
  - ٦ - تاريخ الإسلام
  - ٧ - تاريخ بغداد
  - ٨ - تاريخ الطبرى
  - ٩ - تذكر الحفاظ
  - ١٠ - تهذيب تاريخ دمشق
  - ١١ - تهذيب التهذيب
  - ١٢ - جمهرة نسب قريش
  - ١٣ - حلية الأولياء
  - ١٤ - زهر الآداب
  - ١٥ - سيد التابعين
  - ١٦ - سير اعلام النبلاء
  - ١٧ - شرح السنة
  - ١٨ - الطبقات الكبرى
  - ١٩ - العبر فى خبر من عبر
  - ٢٠ - العقد الفريد
  - ٢١ - العلماء بين التزمّت والتسامح
  - ٢٢ - فقه الإمام سعيد
  - ٢٣ - فقه السنة
  - ٢٤ - مسار الدعوة فى العهد المكي
  - ٢٥ - المعرفة والتاريخ
  - ٢٦ - نسب قريش
  - ٢٧ - وفيات الأعيان
- للإمام الشافعى  
 لأبى الفرج الأصفهانى  
 للبلاذرى  
 لابن كثير  
 للجاحظ  
 للذهبي  
 للخطيب البغدادي  
 لأبى جعفر الطبرى  
 الذهبي  
 لابن عساکر  
 لابن حجر العسقلانى  
 لمصعب الزبيرى  
 لأبى نعيم الأصبهانى  
 للحصرى  
 د. محمد ابراهيم الجيوشى  
 للذهبي  
 للبغوى  
 لابن سعد  
 للذهبي  
 لابن عبدربه  
 د. محمد ابراهيم الجيوشى  
 د. هاشم جميل عبدالله  
 الشيخ سيد سابق  
 د. محمد ابراهيم الجيوشى  
 للفسوى  
 لمصعب الزبيرى  
 لابن خلكان

الترقيم الدولى

I.S.B.N.

977 - 08 - 0780 - X

مركز الإبداع  
 Club of the Author Library (COAL)

٩٨/١٤٤٩٠



